ثروت أباظة

لقاء هناك

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

- ١ -

تأنق الشيخ سلطان عبد الصبور وبالغ فى تأنقه ، متخذا الجبة االخضراء الزيتونية اللون على القفطان ذى الأرضية الفستقية والخطوط الضاربة إلى الخضرة ، وأحكم لف العمامة وطالع نفسه فى المرآة مرات عديدة ، وحاول فى كل مرة أن يستوحى من هذه الخضرة التى يكسو بها نفسه بعض إشراق يجوب نفسه الضيقة الملول ، ولكنه لم يفلح فى محاولاته جميعا . كان الشيخ يعد نفسه للذهاب إلى مكتبه بالوعظ والإرشاد بالأزهر الشريف وهو مكتب ألفه منذ ترك وظيفته فى التفتيش على خطباء المساجد فى المنوفية ، وقد مر على هذه النقلة سنوات وسنوات . فقد انتقل من هناك وابنه عباس فى المهد وها هو ذا عباس اليوم يتقدم لينال شهادة التوجيهية .. سنوات وسنوات . وهو كل يوم ذاهب وعائد إلى المكتب ومنه يشرف مع المشرفين على الوعظ والإرشاد فى الدولة المصرية ، فما أفلح وعظ ولا نجح إرشاد ، والناس تسمع بآذان متعجلة

تريد أن تسارع لتفرغ ما قد سمعته فى حان أو فيما هو شر من الحان ، إبليس اللعين يلاحق قسم الوعظ فى العميق العميق من نفوس الناس ، وخطباء القسم لاتمتد ألسنتهم لغير آذان إن سمعت لاتعى ، وإن وعت فما هى إلا تسليمة الصلاة حتى يقطعون ما بينهم وبين الله ويرجعون إلى إبليس الذى يصاحب نفوسهم ولايزال بها يغريها بكل مايملكه من وسائل للإغراء، وإنها فى يده كثيرة .

وأين وجه الشيخ عكاشة أفصح خطباء الوعظ والارشاد من فتاة غيداء ؟ بل أين أناقة الشيخ سلطان وهى أناقة بالغة من فستان مهما يكن رخيصا ؟ .. إنها حرب لا تكافؤ فيها ولا عدل . وماذا يمكن أن يصنعوا جميعهم إزاء نظرة حالمة ، أو ابتسامة مستدعية أو ـ والعياذ بالله ـ كلمة رقيقة ؛ ألا إنها قسمة ضيزى وإن نصيبهم لأبخس الأنصبة . وحسبه من الزمان أنه ذاهب كل يوم إلى مكتب الوعظ عائد منه . وحسبه أيضا أنه يؤدى الصلوات الخمس مع كل سنة ، بل إنه لايترك المأثورمن شفع ووتر . وإنه ليطيل الركوع والسجود إطالة قد تضيق بها زوجته زكية فى كثير من الأحايين ، ولكنه لايبالى ضيقها فهو يعلم أن إطالة السجود والركوع واجب فى الصلاة لا

سبيل إلى التغاضى عنه .

وحسبه أنه يصلى الفجر فى موقته فلم يكن النوم عنده خيرا من الصلاة فى يوم من الأيام ، وإنه لحريص كل الحرص على أن يصلى ابنه عباس الصلوات جميعا . وكذلك تفعل ابنته وهيبة . لكن أين هذا جميعه مما هو مفروض عليه من وعظ وإرشاد ؟

كان الشيخ قد أكمل ارتداء ملابسه ولم يبق إلا الحذاء ، فجلس إلى الكنبة البلدية ذات الوسائد التى تعترض مقعدها وتذود ظهر الجالس إليها عن الحائط ، وكانت المنضدة بجانب الكنبة لا تبتعد عنها أبدا ، وكانت لبيسة الحذاء على المنضدة لاتبرح مكانها إلا إلى حذاء الشيخ ثم هى تعود . وهكذا مد الشيخ سلطان يده إلى اللبيسة دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلى موضعها وقد أصابت يده مرادها فى غيرتردد ، ولبس الشيخ الحذاء وعادت اللبيسة ، وصاح الشيخ كعادته :

ـ يازكية .

وأصاب النداء الأذن التى أرسل إليها وصاحت زكية من البهو :

ـ هل انتهيت من اللبس يا شيخ سلطان ؟

ويصيح الشيخ مرة أخرى :

ـ هل أعددت الإفطار ؟

ـ دقيقة واحدة .

وتنحنح الشيخ وصمت هنيهة ثم صاح :

ـ ألبس عباس ؟

ولم يجبه أحد فى هذه المرة فعاد إلى الصمت ، ولكنه مالبث أن ضاق به كما ضاق بنفسه داخل الحجرة لايفعل شيئا ، فقام مرة أخرى إلى الصوان وفتح ضلفته ذات المرآة وأخرج من الرف الأعلى زجاجة صغيرة الحجم يغشى الزيت ظاهرها ذات غطاء زجاجى دقيق ، لايقف عمله على تغطية الزجاجة وإنما هو أيضا مرود يجعل من يتزود بعطرها حكيما غيرجائر ، فلا يصيب من العطر إلاقدرا قليلا ينم ولا يفضح . وتعطر الشيخ ثم أعاد المرود إلى الزجاجة والزجاجة إلى الصوان ، ثم أقفل الضلفة وعاد ينظر إلى المرآة ... ويل للعطر ! .. إنه لم يزد من أناقة الشيخ شيئا .

وقبل أن يمد الشيخ يده إلى شاربه الكث ليحاول أن يلم شعثه أو يهذب ثائره ، تراءت له من تحت الجبة قطعة من القفطان تكوم تحتها الصدار فراح يسوى ماتجمع ويعدل ما

التوى حتى عاد إلى ملبسه ما كان عليه من نظام قبل لبس الحذاء ، ثم عاد ينظر إلى المرآة ... ما زال هو كما هو ... عينان واسعتان فيهما سطوة وفيهما قدرة على الخضوع ، ووجه متردد بين الاستدارة والاستطالة يغشيه الشعر في غزارة وكرم؛ فاللحية كثة يكلفه حلقها كل يوم موسى جديدا ووقتا طويلا ، والحاجبان كثيفان كقطعتين من ليلة فى محاق وإن كان الشعرالأبيض قد بدأ يرود طريقه فيهما فيبدو كالنجوم التى تسعى إلى السماء الداكنة خائفة تبحث عن الأنيس أو الرفيق ، والشارب كث ضخم والشيخ دائما حائر فيه ، فهو حينا يجور عليه بالمقص حتى ليصبح غير جدير بوقار الشيخ ومكانته ، وهو حينا يعفيه من التهذيب فترة طويلة فيبدو كالطفل المدلل دائم العربدة بادى الفوضى . وللشيخ بعد ذلك بقية من شعر فى رأسه ، ولكنى أحسب أننا لن نرى هذه البقية أبدا فالشيخ لايترك العمامة إلا إذا لبس القلنسوة ، فما هى إلا ومضة حتى تغطى واحدة منهما رأس الشيخ وماتكفى ومضة لندرك مقدار مابقى له من شعره . إلا أن سالفيه غنيان بالشعر يكسبان العمامة والقلنسوة كلتيهما رواء ،كما يكسبه هو طوله واتساع عارضيه مهابة وجلالا .

هذا هو الشيخ سلطان فى مظهره العام ، إلا أن فى الشيخ خاصية يختلف بها عن سائرالناس اختلافا ماهو بالبعيد وماهو بالضئيل الذى تعبره العين ولاتلتقطه . كانت عينا الشيخ حمراوين دائما سواء أكان الشيخ مريضا أم صحيحا ، مصيبا من النوم حاجته أم قلق النوم غيرهادىء .. العينان حمراوان على أية حال ، ولعل هذا الاحمرار هو الذى يضفى عليهما هذا البريق من السطوة وهذا الاستعداد من الخضوع كأنهما عينا مخمور . ولن تجد محبا للسطوة مثل مخمور ، أو مسارعا إلى الخضوع مثل مخمور أيضا ، إلا أن الشيخ لم يكن مخمورا بل أقسم غيرحانث أنه لم يذق الخمرأبدا إلا ليلة واحدة تاب بعدها . وقد عذبه ضميره أى عذاب . إنها ليلة سحيقة الغور فى أعماق تاريخ الشيخ ، وما كان أحرانى أن أكتمها على الشيخ فلا أفضحه وقد ألقى عليها الزمان أثوابا وأثوابا من الأيام .

ولكن ماذا أفعل وقد زل القلم كما يزل اللسان ؟ وأصبحت الآن ولابد لى أن أذكرها . وعلى أية حال فإنها حكاية صغيرة مرت بالجميع فى هذه السن الباكرة التى كان عليها الشيخ .

عفا الله عنه الشيخ عبد التواب فلولاه ما سقط الشيخ سلطان . وقد كانا يومذاك مجاورين بالأزهر وكانا قد تعودا أن

يخرجا معا بعد الدرس فيرودا الشوارع فى تؤدة ووقار ، فهما ينقلان الخطوات بطيئة متعاظمة وكأنما أثقلهما العلم أن يطلقا لأقدامهما الحرية وينفلتا إلى انطلاقة الشباب وبحبوحة الدماء الفائرة فى عروقهما وقد ضاقت بالوقار وبالجبة وبالعمامة جميعا وكانت النزهة عندهما غاية النزهة أن يتنقلا بين مسجد الحسين والسيدة زينب والإمام الشافعى ، أما الذهاب إلى الهرم فهو مغامرة يدبران لها التدابير ويعدان العتاد ويحكمان الخطط .

وكان الحديث بينهما تعليقا على الدروس والهوامش وآراء الأساتذة واختلاف العلماء ، وكان غاية ما يذهبان إليه فى أحاديثهما من جرأة أن يذكرا اختلاف مشايخ الأزهر وكره بعضهم لبعض ـ وكان المشايخ يهيئون لهم من هذا الحديث مادة لاتنفد ـ فقد كان جميعهم مختلفا مع جميعهم ، وكان جميعهم لا يكتم غيظه وكرهه لجميعهم .

قد كان هذا . ولكن فى ذلك اليوم المشهود من تاريخ الشيخ سلطان بدأ الشيخ عبد التواب حديثه بعد الدرس بداية لم تكن فى أولها غريبة على الشيخ سلطان ، إلا أنها أدت فى آخر اليوم إلى قطعة من تاريخ الشيخ سلطان يجدها أحيانا قطعة جميلة فيها جرأة وفيها شباب وفيها حلاوة ، ويجدها

أحيانا أخرى قطعة شوهاء فيها معصية وفيها كفر وفيها مروق.

قال الشيخ عبد التواب :

ـ نصلى اليوم فى جامع عمرو بن العاص .

ـ لا بأس ، ولكن لماذا اخترت عمرو بن العاص وقد كنا به منذ أيام قلائل ؟

ـ عرفت عنه معلومات ما كانت لتخطر لى على بال .

ـ وماذا عرفت ؟

ـ ألاتحب أن تنتظر فتجمع إلى متعة المغامرة متعة المفاجأة؟

وداعبت صدر الشيخ سلطان عوامل اختلفت بين الخوف والرغبة والإقدام والإحجام :

ـ وهل هناك مغامرة ؟ .

ـ سوف ترى .

انتقل الشيخ عبد التواب إلى حديث آخر فقد كان يخشى أن يتضح من نيته أكثر مماظهر ، وكان يخشى أن يثنيه الشيخ سلطان عما عزم عليه أمره. وبلغ الشيخان المسجد وأقاما الصلاة حتى إذا أتماها قال الشيخ سلطان :

ـ ألانقوم فنصلى المغرب فى الحسين ثم نذهب إلى البيت

لنذاكر ؟ .

ـ ألا نصلى السنة ؟

ـ نصليها .

وصليا السنة ، ثم أراد الشيخ سلطان أن ينصرف فظل الشيخ عبد التواب يغريه بصلوات أخرى ، حتى إذا إنتهى مايعرفه من أنواع الصلا ة صارح الشيخ سلطان برغبته أن يصليا المغرب حيث هما . وفهم الشيخ سلطان أن المغامرة تكمن لهما بعد المغرب فتظاهر بالغفلة ومكث . وحلت صلاة المغرب وصلياها أيضا . وتظاهر الشيخ سلطان بالغفلة مرة أخرى ومكث حيث هو ليرى المفاجأة التى أعدها له الشيخ عبد التواب.

ولم يطل به الانتظار إذ مالبثت سيدة ملفوفة فى ملاءة أن وقفت بباب المسجد وأخذت تجيل عينيها فى أنحائه ، حتى إذا اطمأنت إلى قلة من به خلعت حذاءها ودخلت . وما إن اقتربت من عمودين فى وسط المسجد حتى خلعت ملاءتها . وحينئذ لكز الشيخ عبد التواب الشيخ سلطان ليرى إن لم يكن قد رأى، ولم يكن الشيخ سلطان فى حاجة إلى هذه اللكزة فقد كانت عينا الشيخ على الفتاة منذ لاحت بباب الجامع . ولم تعبأ المرأة بنظرات الشيخين بل راحت تحشر جسمها بين العمودين

وهى تتمتم بكلمات لم يسمع منها الشيخان شيئا ، وبدت الدهشة فى عينى الشيخ سلطان وارتسمت على فم الشيخ عبد التواب ابتسامة العالم ببواطن الأمور ،ولم يمهله الشيخ سلطان :

- ماذا تفعل ؟

ـ تحمل .

وقفز الشيخ سلطان قفزة كادت توقفه على قدمية وهو يقول :

ـ ماذا ؟

ـ إنهن يجئن هنا معتقدات أن المرور بين هذين العمودين يجعلهن يحملن .

ومص الشيخ سلطان شفتيه وهو يقول :

ـ لا حول ولاقوة إلا بالله ... ألمثل هذا جئت بى ؟ !

ـ ماذا ألايعجبك ؟ .. أنقوم ؟ .

وتخاذل صوت الشيخ سلطان وقال فى استخذاء :

ـ أما كان الأولى بك أن تخبرنى ؟

ـ إننا ما زلنا على البر . أتحب أن نقوم ؟

ـ ماذا ؟ على البر ... أتنوى أن ننزل إلى البحر ؟

ـ ويحك ! لن نمضى من هنا إلا والبحر فى يدنا .

ـ ياشيخ حرام عليك !

ـ إن كان الحال لايعجبك نمشى .

ـ أتعرف كيف تجيء بالبحر ؟

ـ لقد وصف لى الشيخ عبد الباسط امرأة معينة ، وقال إنها صديقة طلبة الأزهر الشريف وإنها ترضى بالقليل .

ـ وما القليل ؟

وهكذا تمت التجربة للشيخ سلطان ، فقد جاءت المرأة وكانت كما وصفها الشيخ عبد الباسط ، وكانت ليلة . ثم كان صباح غادر الشيخ سلطان القاهرة والأزهر الشريف وأخذ سمته إلى قريته ميت جحيش ، وقد عقد عقده على خطيبته وابنة خالته زكية التى كانت تنتظره أن يتم علومه بالأزهر . ولكنه بعد مغامرته لم يطق أن ينتظرالشهادة ، وكان أبوه ميسور الحال يستطيع أن يعينه على الحياة بلا عون من الوظيفة . وتم زواجه .

شرب الشيخ سلطان الخمر فى هذه الليلة الخالدة ، فقد علمه الشيخ عبد التواب أن الأنس لايتم إلا بالكأس ، ولكنه لم يعد إليها بعد ذلك أبدا كما لم يعد إلى أمثال هذه المغامرة ، وإن كان الشيخ عبد التواب قد أعجبه هذا الحال وواصل جهاده

فيه .

تلك هى المغامرة الوحيدة فى حيا ة الشيخ سلطان ، فاحمرار عينيه إذن لا صلة له بالخمر . كما أنه ليس مرضا فما يحس فيهما بألم ، إنما هو احمرار ركب فيهما بدلا من البياض

وكان الشيخ سلطان أمام المرآة مايزال يجرى على شاربه محاولات يائسة ، حين طرقت الباب ابنته وهيبة ، فتنحنح الشيخ وقال فى تؤده :

ـ ادخل .

وبدت وهيبة على الباب فتاة فى مطلع الشباب الأول يحرمها البيت أن تبدى من شبابها شيئا ؛ فمنديل يكسو رأسها ، وجلباب يوضع عليها لا أثر فيه للحلية أو للزينة . ولكن الطبيعة التى تحارب الشيخ سلطان فى كل الناس تحاربه فى ابنته أيضا ، فعلى خديها حمرة الشباب وفى عينيها إشراقة تطالع الشيخ فى تحد يضيق به أشد الضيق ، فلو يملك لقال لفتاته إحجبى نور الشباب أن يسطع من محياك ، ولو يملك لألقى على وجهها غلالة أو حجابا كثيفا ، ولكن لا سبيل له أن يفعل . كل ما استطاعه الشيخ هو أن يأمر بها ألا تذهب إلى المدرسة ، فمكثت مع أمها تدير شئون البيت أو تتعلم

تدبيرها ، وقالت وهيبة :

ـ الفطار جاهز يا آبا .

ـ ألبس عباس ؟

ـ لا أدرى فقد رأيته منذ الصباح مشغولا براديو يحاول إصلاحه .

ـ عظيم .. نفتحها ورشة إذن لراديوهات أصحاب سى عباس .

ـ سأناديه حالا .

وخرج الشيخ إلى البهو وقد أعدت به المائدة ، وصاح :

ـ يا عباس !

وجاءه الرد قبل أن يتم النداء !

ـ نعم يا أبى .

ومع الإجابة خرج عباس من غرفته مرتديا ملابسه وقد بدا عليه العجل فى ارتدائها ، وسأل الشيخ ابنه فى حزم :

ـ أصليت ؟

وقال الإبن وقد بدأ وكأنه أعد الإجابة :

ـ نعم .

ـ فهيا كل لتذهب إلى المدرسة .

وجلس عباس إلى أبيه فى أدب صامت ومد يده إلى رغيف واقتطع منه لقمة وهم بالقائها إلى فمه ، ولكن أباه يعاجله :

ـ ابدأ باسم الله ... بسم الله الرحمن الرحيم .

وقال عباس فى استخذاء :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم راح يأكل وقد بدا عليه حرج من نظرة أبيه التى ظلت عالقة به ، وما إن أحس أن أباه انصرف عنه بالطعام حتى عاد إلى سجيته وراح يأكل فى بعض هدوء .

وما أن أتم الاثنان إفطارهما حتى قام الشيخ وغسل يديه وتبعه ابنه ، ثم نزل عباس يتبع أباه حتى بلغ باب البيت الخارجى ، فالتفت الشيخ سلطان إلى ابنه وقال :

ـ مع السلامة واحذرالطريق .

وافترق الشيخ عن ابنه ، وما إن نظر عباس إلى ظهر أبيه وهو يولى عنه حتى عاد إلى كامل طبيعته الشابة المتوثبة ومضى إلى طريقه .

وما إن بلغ نهاية شارع الملك الناصر حتى التفت وراءه فوجد أباه فى النهاية الأخرى من الشارع يكاد يصل إلى شارع

خيرت ، فعبر هو شارع نوبار ووقف على الطوار وألقى نظرة أخرى إلى ظهر أبيه المتباعد وهدأ طائره ، ومضى يسعى فى شارع نوبار تاركا المدرسة إلى شارع المبتديان ، وأمام منزل هناك وقف وظل رانيا .

ـ ٢ ـ

ذلك منزل مرقص أفندى عبد الملك الموظف بحسابات وزارة المالية ، وهو صديق أثير للشيخ سلطان كثيرا ما قضيا الليالى بقهوة السيدة يلعبان النرد ويجيلان بينهما الأحاديث . جمع بينهما المسكن المتقارب والأصدقاء المشتركون . وكان أطفال المنزلين يلعبون فى مكان واحد فكانت إيفون بنت مرقص أفندى تلعب مع عباس ابن الشيخ سلطان . وكان ملعبهما فى شارع الملك الناصر حيث السيارات قليلة المرور .

جمعهما ذلك الملعب سنوات طوالا من العمر ، وشب بينهما ذلك الهوى الطفل الذى يخفق مع خفق الطفولة الندى البرىء . وأمسكت إيفون مرقص بفانوس رمضان ومشت به مع عباس وصحبه يصيحون إيّاحا الخالدة ، وأمسك هو سعف النخل فى أحد السعف ، ولعبت ايفون الكرة وقفز عباس الحبل وعرفا الحب يومذاك ... عرفاه حبا عفيفا جائحا ، فإن غاب صعدت

إلى منزله تستدعيه ، وإن غابت صعد إلى منزلها يستدعيها ، لايجدان من ذلك حرجا ولامن كلا البيتين أى عجب .

وتمر الأيام قاسية كشأنها حين تمر ، فإذا بإيفون شابة وإذا بعباس فتى ، وإذا بالبيت يحبس إيفون عن الملعب وعن عباس جميعا ، وإذا بعباس إن طاف حول بيتها رمقته عيون غير راضية يحس فيها الاستنكار وينصرف خجلا يتلفت وراءه فى حسرة وألم .

ولكن هذا لم يمنعه أن يجد لنفسه مرقبا أمام بيتها يستطيع منه أن يراها وهى تسعى إلى المدرسة فى العربة ولم يمنعها أيضا أن تراه فى مرقبه هذا . وحينئذ كانت تعلم أن الشوق قد بلغ أقصاه فتحتال على أمها أن تسمح لها بزيارة وهيبة وهكذا كانا يلتقيان . ولكن أى لقاء ...

كان مرقص أفندى قد اتفق مع الأسطى جبر أن يأتى لابنته كل صباح ليذهب بها إلى المدرسة ويعود بها منها مقابل مائة قرش فى كل شهر ، وكان الأسطى جبر صادقا فى مواعيده ، وقد كان صدق مواعيده هذا هو الجحيم الذى يصلاه عباس .

فما استطاع يوما أن يختلس كلمة من إيفون ، وما استطاع يوما أن يقترب منها. وكيف له بهذا والأسطى جبر

بمشهد ؟ وأما البيت فأهول من الأسطى جبر وأشد نكاية .

إن أمه لن تسمح مطلقا بجلوسه مع إيفون ، بل إن أخته وهيبة أيضا لن تسمح . بحسبه أن يدخل إلى الحجرة مصطنعا أنه لا يدرى أن أحدا غير أخته بها ، أو يصطنع سؤالا عند وهيبة ، وما هى إلا ريثما تلتقى العيون بومضة من نجوى أو تلتقى الأيدى بلمسة من شوق عارم حتى تفترق الأعين وتنفصم الأيدى ...ثم تمر الأيام ثقالا بطيئات حتى يذهب مرة أخرى إلى مرقبه أو تأتى هى بلا دعوة من وقفته الصامتة على الطوار الآخر من منزلها .

ولم يكن يستطيع أن يذهب فى كل يوم ، فسكان المنازل المجاورة يعرفونه ويعرفونها.. وهم يعرفون ألا عمل له بهذا الشارع . فإذا تعودوا رؤيته فلن تلبث الألسنة أن تتحرك ، وما يلبث أبوه أن يمده وينهال عليه بعصاه التى لم يعفه منها أنه أصبح على أبواب الجامعة .

ولكن رجلا بعينه العجوز استطاع أن يراه وأن يتعود رؤيته أكثر من مرة فى كل أسبوع ... إنه رجل تعود أن يرى ويحسن الرؤية ، وتعود أن يلاحظ ويحسن الملاحظة ، وعلمته الأيام أن هذه الوقفة لابد تخفى من ورائها شيئا . ولم يطل به

التفكير فيما تخفيه ، فما كان أيسر أن ينظر وراءه بعد أن يسعى بتلميذته إلى المدرسة حتى يرى الواقف قد تحرك وعيناه ملتصقتان بظهر العربة لاتريمان عنها .

تحرى الأسطى جبر أن يأتي مبكرا عن موعد نزول إيفون ، وكرر ذلك أياما متتالية حتى كان اليوم . ولم يضع الأسطى جبر وقتا فقد أوقف العربة أمام منزل مرقص أفندى وقصد مسرعا إلى عباس في وقفته . وذهل عباس وأوشك أن يولى الفرار ولكن رجليه لم تسعفاه ، وما أسرع مما جابهه الأسطى جبر :

ـ ماذا تفعل هنا يا أفندى ؟ .

ـ و ... و ... وأنت مالك !

ـ عجيبة ؟ أنامالى ؟ أأخبر أباها ليودى بك فى داهية .

ـ أنا ... أنا ماذا فعلت ؟ .

وابتسم الأسطى جبر وقال فى حنان :

ـ أتعرفك هى ؟

ودهش عباس من هذه اللهجة الناعمة وسارع يقول وكأنما خشى عليها عاديا يمس سمعتها :

ـ ... لا ... لا ... أبدا .

وقال الأسطى جبرفى ابتسامته :

ـ خسارة .

ـ وما الخسارة ؟

ـ لو كانت تعرفك لتغير الوضع .

ـ كيف !

ـ لو كانت تعرفك ... يعنى لو كانت ... لو . .

ـ هيه ... ماذا يحصل لو كانت تعرفنى؟

ـ كنت جعلتك تركب معها .

ـ ماذا ... ماذا تقول ؟

ـ ولكنها لاتعرفك .

وصمت عباس مستخزيا أن يبين كذبه ، ولكن الأسطى جبر العجوز ذو دربة ومراس !

ـ يابنى قل الصراحة لعمك جبر .

واستجمع عباس شجاعته وقال :

ـ الصراحة ياعم جبر ....الصراحة .

ـ فهى تعرف إذن ... كم تدفع لتركب معها كل يوم ؟

وعاد الموقف إلى حرجه ، بل لعله عاد إلى موقف أشد حرجا وضنكا ... ماذا يدفع ... وكيف يدفع ؟ إن كل ما يملكه

قرش واحد لايملك فى اليوم غيره ...

وقال عباس :

ـ أدفع ... أدفع ... ماذا أدفع ؟

ـ فلوس ... فلوس طبعا ... أتريد أن تركب مجانا ؟

ـ ولكن ياعم جبر أنا تلميذ .

ـ وأنا عربجى .

ـ ولكن من أين أجىء لك بالفلوس ؟

ـ هذا ياحبيبى ليس عملى ... يكفى أننى سأجعلك تركب معها . أما من أين تجىء بالفلوس فهذا عملك أنت .

ـ كم تريد ؟

ـ خمسة قروش .

ـ فى المرة .

ـ طبعا ... أم تظن فى الشهر ؟

ـ أمرى لله ياعم جبر .

ـ موافق ؟

ـ لا أستطيع ... من أين آتى بخمسة قروش ... يكفينى النظر ؟

ـ كم تستطيع أن تدفع ؟

ـ أبى يعطينى قرش صاغ فى اليوم .

ـ قرش صاغ واحد ؟ !

ـ واحد .

ـ النظركثير عليك ... أتأخذ قرش صاغ واحد وتريد أن تحب وتنظر ؟

ـ وماذا أعمل ؟

ـ اسمع ! الطيبات لله ... ادفع لى قرشين فى المرة .

ـ ليكن .

ـ اذهب إلى العربة واركب . واحذرأن يراك أحد .

وحين همت إيفون بالركوب ارتدت فى جزع ، فما استطاعت الابتسامة الخبيثة المرسومة على وجه عم جبر أن تمهد عندها للمفاجأة التى تخفيها لها العربة . وهمس عباس :

ـ اركبى لا تخافى .

وعادت إيفون لترى عباس ، ثم ألقت نظرة إلى عم جبر ، ثم نظرت إلى أعلى لترى إن كان أحدا من أهل بيتها بالشباك، ثم ركبت واجفة وهمست :

ـ كيف فعلت هذا ؟

وتحركت العربة وقال عباس :

ـ اتفقت مع عم جبر ... وبعد يا إيفون ؟

ـ وبعد فيم ؟

ـ كيف أستطيع أن أراك ؟

ـ كيف أدرى ... لقد استطعت أن تركب العربة . يبدو أنك أنت الذى تستطيع أن تجد الحل دائما .

ـ أهذا لقاء ؟ .. إنها دقائق أختلسها اختلاسا ، فأنا لابد لى أن أذهب إلى المدرسة ، كما أننى لا أستطيع أن أذهب معك إلى مدرستك أو قريبا منها فقد تراني زميلاتك ... كيف نلتقى ؟ أنت لاتعرفين كم أشتاق إليك .

ـ اكتب لى .

ـ وماذا تنفع الكتابة ؟

ـ وماذا نصنع .

ـ اسمعى ... إننى أستطيع أن أخرج بعد صلاة العشاء، فإن أبى لا يخرج من حجرته بعد صلاة العشاء ... أتستطيعين أن تخرجى أنت أيضا ؟

ـ أخرج ؟ أخرج إلى أين ؟

وقال عباس مفكرا :

ـ إلى أين ... إلى أين .

ـ أتريدنى أن أخرج من البيت ؟

وحينئذ وقف عم جبر بالعربة وهو يقول :

ـ تفضل يا أستاذ ..سندخل إلى شارع المدرسة .

وقال عباس :

ـ فكرى وسألقاك بعد غد .

وقال الأسطى جبر:

ـ وأحضر معك ثلاثة قروش ، فأنت اليوم لم تدفع إلا قرشا واحدا .

وأطرقت إيفون وهى تقول :

ـ لا أدرى ماذا نفعل .

وقال عباس فجأة :

ـ أليس لديك صورة ؟ ..أريد منك صورة .

وقال الأسطى جبر :

ـ ميعاد المدرسة يا أفندى .

وقالت إيفون :

ـ ليس معى الآن صورة ؛ أحضرها لك فى المرة القادمة.

ويقول عباس هامسا :

ـ فأعطينى الآن أى شىء منك ، أريد تذكارا .

وعاد الأسطى جبر يقول فى ضيق :

ـ ميعاد المدرسة يا إخواننا .

وأخرجت إيفون من جيبها منديلا وأعطته مسرعة إلى عباس ، فاختطفه فى لهفة وقبله ووضعه فى جيبه الداخلى . ثم نظر إليها :

ـ فكرى فى طريقة ...أى طريقة ... لايهمك أن أتعب أو أخاطر بحياتى فإنى أريد أن ألقاك .

وصاح الأسطى جبر :

ـ المدرسة يا أفندى .

ونزل عباس من العربة وهو يقول :

ـ بعد باكر ...

وهمست إيفون والعربة تتحرك بها :

ـ مع السلامة .

وسمع عباس الهمسة ، وظل واقفا يرقب العربة حتى أخفاها عنه الشارع الذى حادت به ، ثم أخذ سمته إلى المدرسة يعدو إليها فى نشوة عارمة لاينسى أن يضع يده على الجيب الذى يحوى المنديل ، ويحتضنه إلى صدره كأنه بعض من صدره

– ٣ –

كانت وهيبة لا تدرى ماذا تفعل بحياتها وبأيامها الطويلة، إن لم يكن الله قد من عليها بزيارات إيفون القليلة وبزيارات ابنة خالتها الكثيرة ؛ فما كان لها من الصديقات غير هاتين . وكان هناك الراديو أيضا ولكنه كان ممنوعا عنها منذ يحل أبوها بالبيت ، فما كان يرضى أن يسمع منه غير القرآن وإن تسامح فالأحاديث . أما أن يسمع الغناء والتمثيليات وشتى أنواع الإذاعات الأخرى فذلك هو المستحيل؛ ولذلك كانت وهيبة ترجو صديقتيها دائما أن تكون زيارتهما فى وجود أبيها بالبيت حتى يتاح لها أن تلتذ بالمتعتين معا من الراديو والزيارة .

ولو أن زيارة ليلى لوهيبة لم تكن زيارة خالصة المتعة ، فقد كانت ليلى دائمة اللوم لوهيبة أنها لاترعى شئون أخيها عباس ، وأنها وأمها تبذلان كل جهدهما لإرضاء الشيخ سلطان

بينما لاينظران فى أهم شئون عباس ، فزر ملابسه المقطوع هو من يخيطه ، وطعامه بارد لاتهتم واحدة منهما بتجهيزه ، وملابسه همل لاتهتم واحدة منهما بإحصائها وتنظيفها ... وكانت وهيبة تجيبها أنها بحسبها ماتقوم به من شئون المنزل ولكن ليلى كانت ترى من عباس الألم المرير مما يعامل به فى البيت .

وطالما شكا لليلى على مسمع من أخته أن أباه وحده هو من يحظى بالخدمة والعناية ، وياطالما قال لها إنه يعرف أن أباه لاشك هو صاحب الحياة فى البيت وإن أى عناية تبذل لإرضائه هى بذل فى المكان الجدير به ؛ ولكن عباس يطمع أن يجد عند أخته شيئا ... شيئا ولو هينا من بعض رعاية .وكانت ليلى تلوم وهيبة ، ولكن لم تكن وهيبة لتنيل ليلى أذنا مصغية ، فقد كانت ترى أباها فى البيت هو البيت ، وكل ماتحويه جدران البيت إنما وجد وصنع لا لشىء إلا ليخدم أباها ويهيىء له الراحة والدعة . وكانت ترى أن كل شىء يضمه هذا البيت إنما هو قطعة من آلة لايبعث الروح فيها أو يمدها بالحياة إلا أوامر أبيها ، فإن قال يمينا فيمين ، أو قال شمالا فشمال . هى فى البيت لا فى المدرسة لأن أباها يريدها فى البيت لا فى المدرسة ،

وهى تقوم بالأعباء المنزلية لأن أباها يريد أن تقوم بالأعمال المنزلية ، وهى تصلى لأن أباها يريدها أن تصلى ، وتصوم لأن أباها يقتلها لو أفطرت ... ولقد تخفى عن أبيها إفطارها فى الأيام التى أمر الله بها أن تفطر فيها والتى لايجوز لها فيها صيام .وكان يخيل إليها أن أباها لو شاء فقال لها صومى فى هذه الأيام لصامت ، ولأحست أن صيامها هذه الأيام شأنه شأن صيامها لأيام الشهر الأخرى لا فارق بين الصيامين ، فكلاهما لأبيها.

فيم إذن تلح عليها ليلى أن ترعى شأن أخيها ؟ .. ألا تدرى ليلى ما هم فى هذا البيت ؟ ولكن وهيبة مع ذلك كانت تحب أن تزورها ليلى ، وتحب هذه الجلسة التى تجمع ثلاثتهم ، بل وتحب أيضا مجىء لطفى عجلا دائما يطلب أخته أن تقوم ثم يهددها ألا يأتى معها إذا هى لم تقم . وكانت وهيبة تضحك من هذا النقاش الذى لابد أن يدور بين ابنى خالتها كلما زاراها وتسعد به .وقد كانت خالة وهيبة الست حميدة زوجة لمدرس إلزامى تزوجها فى القرية ميت جحيش ، ثم شاءت له ظروف سعيدة صاحبها سعى منه حثيث أن ينقل إلى الديوان العام بالوزارة ، فقدم مع زوجته إلى القاهرة واصطحب معه عادات الريف لم يتركها . إلا أن القاهرة ما لبثت أن طغت عليه بعض

الشيء فلم يخرج ابنته ليلى من المدرسة كما فعل عديله الشيخ سلطان . وهكذا بقيت ليلى تلميذة تواصل تعليمها فى المدرسة الثانوية وتجد فى « هذه الصفة مثارا لزهوها . فهى مقبلة على التعليم إقبال محب راغب ، يقف أبوها رضوان أفندى من ورائها فرحا بها فخورا يجد من إقبالها على التعليم وسيلة يلهب بها ابنه الوحيد لطفى أن يقبل هو أيضا على المذاكرة إقبال أخته . إلا أن لطفى لم تكن تغريه هذه الحيلة فقد كان يجد فى كرة أصدقائه بحارة البابلى إغراء أشد، ولكنه مع ذلك كان يسير فى دراسته فى غير تعثر وإن كان فى غير نشاط . فما كان من المتأخرين وما كان من المتقدمين ، وكان على كل حال من المنقولين فى آخر العام . وما كان له فى النجاح حيلة فقد تعود أبوه أن ينقطع لمذاكرته قبيل الامتحان فلا يخرج من البيت بل يظل ملازما إياه . فيضطر لطفى مع هذه المراقبة الشديدة أن ينجح وأمره إلى الله .

كانت ليلى تصحب أخاها لطفى كلما شاءت أن تذهب إلى ابنة خالتها وهيبة ، وكان لطفى يضيق بهذه الصحبة أشد الضيق . ولكن رضوان افندى كان يأبى أن تخرج ابنته بعد الظهر دون أخيها ، وإن كانت لم تتجاوز الرابعة عشر ة ولم

يتجاوز أخوها الثالثة عشرة .

أما الست حميدة فقد كانت ترى فى مواصلة ليلى لدراستها عبثا لا طائل تحته ولاداعى له ، فهى لا تراها خارجة فى الصباح إلى مدرستها إلامصت شفتيها وقالت :

ـ عشنا وشفنا بنات آخر زمن .

لاتخطىء مرة وتنساها أو تخطىء مرة وتغيرها .

وكانت حجتها أن ابنة أختها مكثت منذ أعوام فى البيت لا تخطو عتبته ، فتعلمت كيف تخدم البيت وتقوم بأعبائه فى حين لا تستطيع ليلى أن تقيم وعاء على النار . وكان يلذ لرضوان افندى أن يسمع هذا الحديث فيضحك من جهل زوجته ويطمئن إلى ذكائه هو وسعة أفقه . أما ليلى فكانت تضيق بحديث أمها حينا أوتقبلها وتدغدغها حينا آخر . ولكن الخوف كان يداخلها دائما أن تستطيع أمها فى يوم من الأيام أن تؤثر على أبيها فيصرفها عن الدراسة كما صرف عمها الشيخ سلطان وهيبة عن المدرسة . ولا تجد لخوفها مكانا تفرغه فيه إلا المذاكرة الدائمة التى تبقى عليها زهو أبيها بها وتمسكه بإكمال تعليمها .

كانت ليلى فتاة طلقة المحيا ، صحبت من أصلها الريفى

براءة السمات وإشراقة النفس وبساطة التعبير ؛ فشعرها ضفيرتان من الذهب ، وعيناها صفاء ومحبة للحياة و إقبال عليها ... إقبال هادىء مطمئن واثق ، والألوان فيهما نقية ؛ فالسواد قاتم فى الحدق محوط بدائرة من صافى العسل ، والبياض ناصع صريح ، والحديث يفيض منهما أنهما لا تخفيان من ورائهما إلا نقاء أوتحجبان من دونهما إلا براءة وطهرا .

وكانت ليلى ناصعة البشرة بيضاء لا يكاد يشوب لونها حمرة أو سمرة . وقد بدأت منذ قليل تنظر إلى المرآة وتضيق بهذا اللون الواحد الذى يأبى أن يتلون بحمرة عند خديها أو بسمرة عند عينيها . وقد بدأت منذ قليل أيضا تمسك بخديها فى غيظ فتترك أصابعها حيث أمسكت بعض حمرة مايلبث لونها الأبيض أن يمتصها . ولم تكن ليلى بالنحيلة ولا هى بالسمينة ، كما لم تكن بالطويلة ولاهى بالقصيرة ، إنما هى فى قوامها من هؤلاء اللواتى لاتستطيع أن ترى فيهن شيئا يدعو إلى العجب أو إلى الإعجاب . أما أطرافها فقد كانت أكبر مما ينبغى لسنها ؛ فيداها وقدماها أقرب إلى الضخامة منهما إلى الدقة التى كانت ترجوها هى ، وإن كانت أصابع يديها تنتهى بأطراف دقيقة فتستطيع بذلك أن تخدع عين

الرائى فيظن بها ما لا تتمتع به من أناقة .

هكذا كانتِ ليلى . لم أترك من وصفها شيئا إلا ذلك الفستان الأحمر الذى كانت تكثر من لبسه ، والذى كان يدرك لطفى كلما رآها ترتديه أنها قد انتوت أن تخرج وأنه مرغم على أن يقطع لعبه ويصحبها إلى زيارتها البغيضة . ولم يكن مخطئا فى إدراكه هذا ، فها هى ذى تفتح الشباك وقد ظهر النصف الأعلى من الفستان اللعين .وما أن يرى لطفى الشباك يفتح ويطل منه الفستان حى يولى ظهره للبيت وللكرة أيضا التى كانت قادمة فى هذه اللحظة إ لى أقدامه ـ وقد ظل ينتظرها منذ بدء اللعب ـ وتصيح :

ـ لطفى ...لطفى .

ويسمع لطفى ولكنه يجرى محاولا أن يسبق الكرة ليحقق أمنيته فى الرمى بها إلى الهدف ، ولكن الكرة تأبى أن تحقق ما يصبو إليه ، ويعاجلها ظهير الفريق الآخر فيبعدها عن أقدام لطفى وعن آماله جميعا ، فلا يملك آخر الأمر إلا أن يجيب هذا النداء المتلاحق الذى لم ينقطع طوال هذه المناورة :

ـ نعم يا ستى ... الله يقطع لطفى وأيام لطفى ... نعم ... تفضلى انزلى ...تفضلى ، فمادمت لبست فستان الحصبة

فهى الزيارة .

وتنزل ليلى ويسير لطفى إلى جانبها وقد استبدلت قدمه الكرة بقطعة كبيرة من الحصى راح يركلها بقدمه ، منصرفا إليها ، مفكرا فيما كان خليقا أن يفعله فى الملعب لو لم ترغمه أخته على أن يصحبها فى هذه الزيارة . ويلتفت إليها فجأة ويسألها :

ـ أنا والله لا أعرف ما الذى يعجبك فى هذه الزيارات .

ـ إنه أنا والله التى لا أعرف ما الذى يعجبك فى الكرة .

ـ ياسلام ... ألا تعرفين ؟ .. ولكن لا عليك فأنت معذورة ..لو كنت تلعبين الكرة لعرفت لذتها .

ـ ألعب ... ولماذا لا ألعب؟

- نعم هذا ماينقصك ... ألاتكفى المدرسة التى تذهبين إليها وأنت بهذا الطول ؟

ـ رجعنا إلى الغيرة .

ـ غيرة ...من ؟ . أنا أغار منك ؟

ـ طبعا ... اجتهد يا أخى وأنت تصبح مثلى .

ـ والله إن أبى جنى عليك وجعلك تفهمين أنك شىء مهم .

ـ أنا شىء مهم طبعا ... أنا الأولى .

ـ يا بنتى الغرور ركبك وأصبح الكلام معك يحتاج إلى الصبر .

ـ بل قل إنك تجد كلامى صحيحا ولاتعرف كيف تجيب .

ـ لا بل أعرف ... قولى لى ... ماذا ستفعلين بالشهادة ... إذا لا قدر الله ونلت الشهادة ؟

ـ قل لى أنت ماذا ستفعل بها ؟

ـ سأتوظف .

ـ وأنا أيضا ، سأتوظف .

ـ ياعينى ياعينى .. كملت ... يابنتى اعقلى .

ـ هذا هو العقل ... ثم أنت ما شأنك ؟ .. أطال الله عمر أبى ، مادام راضيا فآراؤكم جميعها لا قيمة لها .

ـ الله أكبر ... آراؤكم هذه تقصدين بها أمك طبعا ؟

ـ من جاء بسيرة أمى الآن ؟

ـ أنت .

ـ أنا ؟

ـ والله لأقول لها إنك لاتهتمين برأيها .

ـ عيب عليك يا لطفى لاتدخل نينا فى الموضوع .

ـ مادامت آراؤنا كلها لاقيمة لها .

ـ وهل قلت نينا ؟

ـ ومن كلنا ؟ .. قل ياجحا عد غنمك قال واحدة قائمة والأخرى نائمة ، فمن كلنا إن لم يكن أنا ونينا ؟

ـ اسمع سأعطيك قر شا ولاتقل شيئا لنينا .

ـ والله المسألة فيها نظر .

ـ لأجل خاطرى يالطفى .

ـ أنا لم أعد بشىء .

ـ اعقل يالطفى .

ـ وحين أعود إليك تنزلين مباشرة ؟ ..

ـ آه يا لئيم ، وما الضرر فى أن أجلس بعض الوقت مع وهيبة ، وأنت تعرف أنها لاتخرج من البيت ولاتزور أحدا ولايزورها أحد إلا أنا وإيفون ؟

ـ هذه هى شروطى ... أقعد قليلا ، أنتظر خمس دقائق أخرى . كلمة من هذه أبلغ نينا مباشرة .

ـ أمرك يافرعون ، وأنت أيضا لاتسرع بالعودة .

وانصرف لطفى وصعدت ليلى إلى وهيبة . كان عباس يسعد بجلسته إلى ليلى وكانت تسعد هى بها ، وكان الحديث بينهما ينساب رخيا يحدثان وهيبة عن المدرسة وعن المدرسات

وعن خلافاتهم مع الطلبة والطالبات ووهيبة تسمع فى لهفة ووجيب ، فقد كانت تتوق أن تواصل تعليمها وإن كانت تعتبر هذه الرغبة جرما لايجوز لأبيها أن يتعرف عليها ، فهى تخفيها في نفسها لاتراها إلا نفسها .

وقد وجدت ليلى عباس جالسا إلى أخته ، واستقبلها حين قدمت فى فرح :

ـ أهلا ... أين أنت لم نرك من زمان ؟

ـ مشغولة فى المذاكرة .

وقالت وهيبة :

ـ تحتجين دائما بالمذاكرة، وأناوحدى لاتسألين عنى .

وقالت ليلى :

ـ لو عرفت العذاب الذى ألقاه من لطفى كلما فكرت فى المجىء لعذرتنى .

وقال عباس فى سذاجة :

ـ يا ستى لايهمك لطفى ، إذا أردت المجىء أرسلى لى سيدة وأنا أجىء إليك وأحضر معك .

وصعدت حمرة إلى وجه ليلى وأرتج عليها ، فهى تعلم أن أباها لن يسمح أن تخرج مع عباس ، وهى فى نفس الوقت لا

تستطيع أن تخبر عباس بهذا .فتلعثمت واختلطت فى فمها بعض حروف لاتكمل لفظا أوتؤدى معنى ، وفهم عباس حيرتها وأدرك ما انزلق إليه لسانه . وسارعت وهيبة :

ـ لو قلت للطفى إننا سنلعب الكرة لجاء يجرى .

واستطاع عباس بعد جهد أن يجد لسانه فقال :

ـ ماذا أخذتم فى الإنجليزى ؟

قالت ليلى :

ـ أشياء كثيرة ، إلا إننا مازلنا لانستطيع فهم المدّرسة تماما.

ـ العجيبة أننا نتعلم الإنجليزى بسرعة والمدرسون الإنجليز لا يتعلمون العربى أبدا . لو رأيت المسترجودمان وهو يحاول الكلام مع الفراش لما استطعت أن تمنعى نفسك من الضحك .

ـ أما المس بنيت فلا تحاول حتى الكلام .

وتقول وهيبة وهى تحاول أن تجذب طرفا من الحديث :

ـ ماذا تفعل المس مع الخادمة فى البيت ؟

ويقول عباس :

ـ لابد أنها تكلمها بالإنجليزى .

وتضحك وهيبة وليلى ، وتقول ليلى :

ـ تصور لو تكلمت المس بنيت مع سيدة أم متولى .

وعادت وهيبة تحاول أن تجذب طرفا من الحديث :

ـ من أكثر مدرس تحبه ياعباس ؟

ويقول عباس بلا ريث وتفكير :

ـ مدرس الرياضة .

وفزعت ليلى قائلة :

ـ أعوذ بالله ...الرياضة ؟

ويقول عباس :

ـ نعم ... مالها الرياضة ؟

وتقول ليلى :

ـ أتعرف ياعباس أننى لولا الرياضة لأصبحت الأولى على القطر .

ويقول عباس عابثا :

ـ وهذا سبب جديد يجعلنى أحب الرياضة .

وتقول ليلى بين الضحك والتعجب :

ـ أنا لا أتصور كلمة الرياضة تأتى مرادفة للحب بحال من الأحوال .

ويقول عباس فى استعلاء خفى :

ـ عقلك خيالى حالم . لو كنت تجيدين التفكير لأحببت الرياضة . ثم إن الرياضة التى نتعلمها أهم بكثير من الرياضة التى تتعلمينها .

وتقول ليلى فى سرعة وكأنها تدافع عن كرامتها :

ـ الرياضة التى نتعلمها غاية فى الصعوبة .

ويعود عباس إلى استعلائه وقد مازجه بعض سخرية :

ـ أتسمين هذه رياضة ؟ هذه لعب عيال .

وتقول ليلى غاضبة :

ـ على كل حال أنا لا أنوى أن أتعلم لعب الرجال الذى تتعلمه، فأنا سأدخل القسم الأدبى .

وقال عباس فى نفس اللهجة المستعلية :

ـ طبعا فأنت مازلت خيالية ، ولكنك حين تكبرين ستفضلين الرياضة . وعلى كل حال أين أنت من الاختيار ؟ ما زالت أمامك فترة طويلة .

وأجابت ليلى متحدية :

ـ ولكننى الأولى ياشاطر... هل استطعت أن تكون الأول فى عمرك ؟

ووجدت وهيبة نفسها مقصاة عن الحديث مرة أخرى ، كما

وجدت أخاها قد بالغ فى إغاظة ليلى فقطعت عليهما التصارع قائلة :

ـ وأنت ياليلى أى المدرسات أحب إليك ؟

ونظرت ليلى إلى وهيبة التي كانت قد نسيتها فى غمرة هذا الهجوم الذى شنه عليها عباس ، وهمت أن تجيب ولكن عباس سبقها :

ـ طبعا ليست مدرسة الرياضة .

وقالت ليلى :

ـ لا ...أعوذ بالله ... أحب مدرسة الديانة .

وقال عباس بسرعة وبلا وعى :

ـ أعوذ بالله .

ووجمت ليلى ودقت وهيبة صدرها فى ذعر :

ـ أعوذ بالله من الديانة ياعباس ! هل جننت ؟

وتلجلج عباس قليلا ثم قال فى لعثمة :

ـ حصتها ثقيلة ...

وظلت ليلى على وجومها ، وقالت وهيبة فى استنكار :

ـ الديانة ؟

وقال عباس وعقدة من تردد ماتزال آخذة بلسانه :

ـ نعم الديانة ، وماذا ؟ كفرت !! لوكنت رأيت الشيخ مدبولى الذى كان يعلمنا الديانة فى السنة الأولى الابتدائية لعرفت أننى معذور .

ولاحت فى عينى ليلى بوادر استفسار ولكنها ظلت على وجومها ، وقالت وهيبة فى استنكار لم يفارقها :

ـ الشيخ مدبولى ؟

ونظرعباس إلى ليلى التى لم تقل كلمة منذ بدأت هذه الحديث عن الديانة ، ووجد علامات الجزع تمازج علامات الاستنكار على وجهها ، كما وجد طلائع السؤال فى عينيها أبت أن تفرج عنها شفتيها ، مستأبية أن تحادث هذا الذى سمع كلمة الديانة ثم استعاذ بالله منها . ووجه عباس حديثه إليها :

ـ كان الشيخ مدبولى يمسك بأربع مساطر من حديد ... أتعرفين المسطرة الحديد ؟

ولم تجب ليلى وأومأت وهيبة أن نعم . وواصل عباس حديثه :

ـ فمن لم يحفظ آية منا راح يضربه بحد المساطرعلى عظام ظاهر اليد ... أرأيت جبروتا كهذا ؟

واستراحت ليلى قليلا حين وحدت كرهه للحصة لا للديانة

.ولم تستطع وهيبة أن تقبل فى نفسها هذا التفريق فقالت :

ـ ولكن لايصح لك أن تقول أعوذ بالله وهى تقول إنها تحب مدرسة الديانة .

وواصل عباس حديثه :

ـ كان الشيخ مدبولى هذا أقسى أستاذ شفته فى حياتى ، قلب من حجر ويد من حديد ، وكنت ـ وما زلت ـ أعجب أين الديانة فى قلب هذا الرجل ؟ وهل الديانة هى هذه القسوة وهذا الجبروت ؟

وحين نقلت من المدرسة الابتدائية كان أكثر فرحتى أننى سأترك الشيخ مدبولى . ولكن حين دخلت الفصل فى مدرسة الخديوى إسماعيل فى الحصة الأولى من اليوم الأول للسنة الأولى ، وجدت الشيخ مدبولى هو مدرس العربى والدين معا ... كان قد رقى واستقرت الترقية على رأسى أنا .

وقالت ليلى وهى تغالب الضحك :

ـ وهل مازال الشيخ مدبولى فى المدرسة ؟

وقال عباس :

ـ لا .

وقالت ليلى ضاحكة :

ـ خسارة ! وأين هو ؟

وقال عباس :

ـ أترين ذهابه خسارة ؟ ..ربنا يبلوك بمثله إن شاء الله .

وقالت وهيبة وقد غاظها أن أخاها يتجاهلها ويوجه حديثه إلى ليلى وحدها :

ـ ألأنه يضربك من أجل الحفظ تكرهه هذا الكره ؟ .. إذن فأنت تكره أبى ... إنه مازال يضربك حتى الآن .

وقال عباس فى سخط وتبرم :

ـ أنا ... أنا أبى يضربنى ؟

وقالت وهيبة بعد أن أخرجت تهويمة طويلة :

ـ أظن علقة الشهر الفائت مازالت آثارها على جسمك ، الخيزرانة يا عم وهات ...

وقال عباس متلعثما :

ـ أنا ... أنا .

وسارعت وهيبة :

ـ نعم أنت ... ألم تكن أنت الذى لم تصل الفجر حاضرا ، وعلم أبوك وسحب الخيزرانة و ...

وقاطعتها ليلى وقد خفق قلبها بالعطف الشديد على

عباس :

ـ وأين ذهب الشيخ مدبولى ياعباس ؟

وقال عباس دون أن يلتفت إلى ليلى :

ـ طيب ياوهيبة ... ياكذابة ؟ ...

كان عباس يحس الطعنة غائرة فى صميم كرامته ، ولكن ليلى خففت ألمه وهى تسأله فى براءة وكأنها لم تسمع قصة ضربه:

ـ ياأخى قل .. أين ذهب الشيخ مدبولى ؟

والتفت عباس إلى ليلى وكأنما يعود إليها من أعماق سحيقة :

ـ من ... آه الشيخ مدبولى ؟

وقالت ليلى :

ـ نعم الشيخ مدبولى ... أين ذهب ؟ .

ـ رفت ..لا أرجعه الله .

ـ رفت ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

وتماوجت فى عين عباس أضواء من بريق اللذة ، فإنه يحب

أن يخبرها لماذا رفت ، ويخشى فى الوقت ذاته أن يخبرها . يخشى ألا تقبل منه هذا الحديث ويخشى هذه الوهيبة التى تقعد له كالعقلة فى الزور ، ولكنه لم شتات شجاعته آخر الأمر وقال :

ـ يبدو أنه لم يكن قاسيا قسوة كافية مع تلميذ معين بالذات .

وقالت وهيبة :

ـ ماذا ؟

وقالت ليلى :

ـ لا أفهم شيئا .

وقال عباس :

ـ أتريدين أن تعرفى ؟

ـ نعم .

ـ على ألا تغضبى ؟

وسكتت ليلى وقالت وهيبة :

ـ قل ياعباس ... قل والنبى .

وسكت عباس قليلا وهو يرقب هذه الحمرة التى تزحف على وجه ليلى الأبيض الناصع البياض ، وحين أومأت له أن

يقول قال :

ـ أنا لا شأن لى !

وقالت وهيبة :

ـ قل يا عباس شوقتنا يا أخى .

وقال عباس فى سرعة وكأنما يخشى أن تخذله شجاعته فلا يكمل جملته :

ـ لقد ضبط الشيخ وهو يقبل أحد التلاميذ .

واختلط الخجل بالوجوه المتوارية عن ضحك غرير خبيث جاهل لايخلو من علم ، واستقبل جو الغرفة كلمات من الفتاتين تحاول أن تكون جادة فيخذلها صوت من الهزل يكسر عنها حدة الجد . وتبتلع الألفاظ والابتسامة والخجل جميعها قهقهة عالية من عباس لهذه الحيرة التى أوقع فيها أخته وابنة خالته .

وقبل أن ينتهى الضحك يدخل لطفى عجلا كشأنه حين يزور . واستقبلته وهيبة :

ـ أهلا ... أين أنت يا أخى ؟ اقعد .

وطالعه من وهيبة هذا الترحيب ، وطالعه منها أيضا وجه وضىء وابتسامة حلوة وجمال لم يلحظه قبل اليوم .ولكنه مع ذلك أصر أن يظهر تعجله وضيقه بمرافقته لأخته .فأطلق جملته

التى كان أعدها منذ سمع الضحك العالى الذى سمعه على السلم أول ما سمع :

ـ عظيم يا ستى ليلى ، مادمت تضحكين فلن نقوم من هنا فى ليلتنا .

واستمر عباس فى ضحكه ، وسكتت ليلى والخجل مايزال يغشى وجهها .

وقالت وهيبة :

ـ يا أخى اقعد ... ألا نراك إلا لتنصرف ؟ اقعد ... لنا زمان لم نرك .

ووجد لطفى نفسه جالسا ؟ لماذا ؟ إنه لايدرى ، إلا أنه أحس شيئا جديدا فى صوت وهيبة يدعوه إلى الجلوس وقد استجاب لهذا الجديد وقعد .

وطال الكلام وراح لطفى يستعرض مهاراته جميعا .ولكن ما أضأل الفرصة التى يتركها له عباس من الحديث ، فهو يجتاح المجلس كله بنكاته ، وإن ليلى لمستجيبة لهذا الحديث لاتبغى عنه حولا ، ووهيبة جالسة إلى ليلى وعباس فاغرة فاها فرحة بهذه العوالم الحبيبة التى حرمها منها أبوها ، ولطفى تائه فى هذه المشاعر المتماوجة بين إقبال ليلى على حديث

عباس ، وإقبال عباس على الحديث إلى ليلى ، وإقبال وهيبة على المتحدث والمستمعة جميعا ...تأنه هو حائرضائع فى هذا الزحام من الأفكار والخلجات ، لايجد لنفسه مكانا فى المزدحم الثلاثى الصغير ، فما له إذن لايهيب بأخته أن تقوم وهو من وضع لها الشروط ويملك فى يده السلاح القوى المتمكن الذى يستطيع به أن يقيمها قبل أن يكمل عباس لفظته التالية ...

وماله لايقوم ؟ .. لقد أصبح لايدرى أو هو يخيل له أنه يدرى وهو فى نفسه عاجب من هذا الذى يدريه ولايدريه ... أى جديدة تراوحه من هذا المجلس الذى تعود أن يضيق به والذى كان يخلق به أن يضيق منه الآن أكثر من أى وقت مضى؟ .. ولكن ها هو ذا جالس يلتذ حيرته ، لايأبه بهذا الخذلان الذى يلاقيه كلما وجد لنفسه ثغرة لحديث لا تلبث أن تقفل فى وجهه إذا تحدث ، فقد تُقطع جملته قبل أن تتم ، أوتنزل جملته إذا اكتملت فى مجال لايرحب بها .. وهو مع هذا مقيم ...مقيم ، حائرا أو غيرحائر ، داريا أسباب إقامته أوغير داريها... فهومقيم ... مقيم ... حتى يأتى الشيخ سلطان فيشتت الشمل الجميع ، وإن كان قد حيا ليلى ولطفى فى ترحاب وايناس .

ـ ٤ ـ

عاد مرقص أفندى من الوزارة ، وقد كانت نفس مرقص أفندى تعود إلى طبيعتها فى اللحظة التى يصل فيها إلى باب شقته ، وليس قبل ذلك . كأنما هو ونفسه الطبيعية المرحة الطيبة الصاخبة فى بعض الأحيان ، كأنما هو ونفسه هذه على موعد من المكان ، يلتقيان عند باب شقته فى عودته من الديوان ويفترقان عند باب شقته فى خروجه إلى الديوان . بل لقد كان يفارق نفسه أيضا إذا ماخرج إلى القهوة بعد الظهر ، فهو وإن كان يلتقى ثمة بأصدقاء قدامى إلا أنه لايحس نفسه على سجيتها الكاملة إلا فى بيته مع زوجته وابنته إيفون.فإذا جاء زائر مهما يكن قريبا ـ حتى وإن كان أخوه شفيق الذى يحبه ويقدره ـ عاد مرقص أفندى إلى اصطناع ما لايصطنعه فى بيته من حذر فى الحديث ، فلا يتكلم إلا إذا فكر فيما هو قائل ، بل هو حتى إذا ضحك لم تنطلق ضحكته كرد فقد

طبيعى لما استدعى الضحك .لا ...

إنه يفكرهنيهة ... هنيهة لاتكاد تلحظ ثم هو يضحك . وهو إن فعل يترسل فى ضحكته ويخرج كل مايكتمه فى أغوار نفسه من قلق ، وكأنما يخشى ألايجد شيئا يضحكه بعد ذلك ، وكأنما وجد فيما سمعه فرصة لاسبيل إلى مثلها فهو ينتهزها فى إقبال مطمئن ، وقلما يطمئن مرقص أفندى .

وكان يحس كلما خرج من بيته أنه فى سبيله إلى مجهول من الحياة غامض ليس فيه حنان أو شفقة . كان إحساسه بهذا المجهول مرهقا ، وكانت نظرته إلى الأيام القادمة نظرة حافلة بالمخاوف والشك . فهويصانع هذا المستقبل ويترضاه ماوسعه الجهد ، وهو طيب النفس بطبيعته ؛ فهو مع زملائه فى المكتب لايرد لهم رجاء ، وهو مع رؤسائه مطيع كيس ، وهو مع مرءوسيه مهذب يصدر الأمر بالرجاء ، ويوجه اللوم بالهمس ، ويستمع إلى شكواهم فى أبوة ، ويعين ضعيفهم على الأيام . ولكنه إلى هذا جميعا لايسمح بتقصير يعرضه هو إلى غضب من رؤسائه ، فإذا آنس من أحد مرءوسيه إهمالا متعمدا ، أوتقصيرا لم يُجد فيه اللوم الهادىء ، انقلب الرجل الطيب إلى صراخ هائج عنيف قد يصل فى كثير من الأحيان إلى طلب

خصم من مرتب الموظف المقصر . بل وصل فى يوم من الأيام إلى رفت أحد مرءوسيه وقد أضاع أوراقا على جانب من الأهمية .

وقد كانت مكانة مرقص أفندى فى الديوان خليقة أن تشيع الهدوء فى نفسه وتنفى عنه هذا القلق الذى يعانيه ، ولكن كيف ؟ .. قد صحبه هذا القلق منذ لايذكر متى ، فكيف يتركه ؟ إنه لايحاول ذلك ، فقد كان يدرى أنه لن يبلغ من محاولاته إلاالفشل ومزيدا من القلق ...

لقد تعود هذا القلق ، وتعود أن يتركه بجانب الباب الخارجى من منزله ، فلا تراح نفسه إلاحين يدخل البيت ويثق أنه دخل ، ثم يغلق الباب من خلفه ويثق أنه أغلقه .فإن خرج من باب البيت عاوده القلق . تعود أن يجده فى« نفسه كما تعود أن يجد طربوشه بجانب الباب من الداخل ؛ هناك على المنضدة التى يضع عليها الطربوش بعد أن يترك القلق ويدخل، ويغلق من دون الحياة المخيفة خارج البيت بابه .

لم يكن مرقص أفندى سعيدا فى يومه هذا . ومالبثت زوجته الست مريم أن تبينت على وجهه هذه الوجمة من العبوس التى تعرف حين تراها أنه يحمل فى نفسه ألما . وقد

تعودت مريم أن تتركه هو ليفضى إليها بدخيلة نفسه ، وتعودت أيضا أن تبحث له عن موضوع من الحديث بعيد كل البعد عما يضطرب فيه من حياة لعلها تصرفه بحديثها عمايلح عليه من ألم وأحزان .

وما أسرع ماتجد مريم الحديث ، وما أبرع ماتلبس حديثها بالجد الصارم حتى ليحسب من يراها أنها لا تريد فيما تقول إلاأن تبسط مايعرض لهامن مشكلة تضيق بها .

ـ تعال ياسى مرقص شف بنتك ...

وتمص شفتيها ثم تكمل الحديث :

ـ بنات آخر زمن ...لايعجبها ذوقى .لقد رفضت أن تفصل ما اشتريت لها من قماش .

ويقول مرقص أفندى في طيبة :

ـ ياستى دعيها تختار ثيابها كما تريد .. ماشأنك بها ؟ .. هل أنت التى ستلبسين أم هى ..

وتوغل مريم فى الحديث :

ـ والعذراء لقد أفسدتها وجعلتها تمشى على هواها ، فكل ماتطلبه منك أمر لاتتأخر عنه .

ولم يكن مرقص أفندى في حال تسمح له بمواصلة الحديث،

ولكنه أيضا لم يرد أن يصرف زوجته صرفا عنيفا فصمت ، وأدركت مريم خلجات زوجها فسكتت . وطوفت بالردهة التى يجلسان بها لحظات من صمت كانت مريم تعلم أنها لابد أن تنتهى سريعا بزفرة عميقة من مرقص ، وكانت تعلم أنها عائدة بعد ذلك إلى بعض صمت ، ثم ماتلبث أن تعلم هذا الذى يضيق به صدر زوجها .وتم الأمر كما توقعته ، وتنهد مرقص أفندى ثم تكلم :

ـ طارت الدرجة. إلام هذا الظلم؟..يارب ..يا رب رحمتك

وقالت مريم :

ـ يامرقص ياحبيبى صحتك أهم من كل شىء ... أنت تعرف يامرقص أننا ليس لنا فى الدنيا إلا أنت ... ارع صحتك لأجل بنتك يامرقص ، ولأجلى أنا ... ألا نساوى عندك درجة؟

ـ يا مريم الظلم صعب .الظلم صعب يامريم .

ـ أليس من الظلم أن تسىء إلى صحتك وتضحى بنفسك وبنا من أجل درجة تأخرت ؟ .. مصيرالدرجة أن تأتى يامرقص، ولكن صحتك أنت لاسبيل إلى تعويضها .

ـ ما ذنبى ؟ .. ماذا فعلت ؟ .. ليس فى مصركلها موظف يؤدى واجبه كما أؤديه ... أنا فى مكتبى قبل أن يأتى

الفراش، وينصرف الفراش وأظل أنا بالمكتب .كل هذا لايعجب عبد السميع بك ويفضل الغير دائما ...طلبت نقلى فقال لايمكن الاستغناء عنك ... طبعا ويظلم من إذا نقلت أنا ؟ .. لايرحم ولايترك رحمة ربنا تنزل .

- ويعد لك يامرقص ؟ أهى آخر درجة فى الحكومة ؟ .. صدقنى حلمت لك حلما وسيتحقق وستنال الدرجة ... رأيت كأنك فى كنيسة كلها بالذهب وحولك الناس يهنئونك وأنت تضحك وأنا واقفة إلى جانبك والدنيا لاتسعنى من الفرحة ... وحياة إيفون إلا ابتسمت يا مرقص . ابتسم ياأخى ... هكذا ... هكذا ياأخى ... فداك ألف درجة ... دخلتك علينا فى البيت وجلستك معنا أحسن من كل درجات الدنيا ... قم ... قم يا أخى غير ملابسك وتعال نأكل ... لقد أعددت لك ملوخية بالأرانب ستأكل أصابعك معها ... قم ... قم .

وقام مرقص وشعاع خائف متردد من الراحة يتسلل إلى نفسه ، ولكن الراحة مالبثت أن اطمأن بها المقام فى نفسه وعادت إليه هدأة البيت وضحكة زوجته وانتظاره لابنته بالطمأنينة التى تعودها كلما أقفل من خلفه الباب تاركا هذه الحياة التى تظلمه إلى الحياة التى ترعاه .

وأقبلت إيفون بعد حين ولم تدخل إلى حجرتها التى يقع بابها على السلم ، بل دخلت من باب الردهة إلى حيث تعلم أن أباها جالس ، وألقت بحقيبتها على المنضدة وأقبلت على أبيها فقبلته ، ثم راحت تبسط له شكواها من أمها التى تريد أن تلبسها أثوابا ذات ذوق قديم ، والتى تفرض عليها أيضا ذوقها فى التفصيل . وإيفون حين تضيق بشىء من أمها تلمع عيناها فى أسى ويشترك وجهها الأسمر الدقيق القسمات فى التعبير عن هذا الذى يهدر لسانها فى فيض الألفاظ الغاضبة ـ الرقيقة ـ فلا تنبو منها لفظة لاتريد أن تقولها ، أوتخرج بحديثها عما ينبغى لبنية أن تتحدث به عن أمها . وقد كانت تدرى أى مكانة رفيعة تحتلها أمها عند أبيها ... وكان أبوها يستمع وابتسامته تترقرق على فمه ، فقد كان جوابه معدا قبل أن تبدأ إيفون شكواها ، فهو يستمتع بتدفقها فى الشكوى وبهذا الحديث الجاد الطويل الذى لم تكن تحتاج إليه لتقنعه . فقد كان طلبها وحده كافيا لإقناعه ، وقد كانت ابتسامة منها كافية ليجيب لها كل ماتصبو إليه . ومالبثت إيفون أن تبينت الابتسامة على وجه أبيها ، ومالبثت أن أدركت فيها بلوغها إلى ماتشتهى فسكتت . ونظرت إلى أبيها لحظة ثم أغرقت فى

الضحك ، ومالت على وجه أبيها تقبله فى حب واعزاز .

وقال أبوها وهو يبتسم :

ـ بدأت تهتمين بلون القماش ونوع التفصيل ... خير يا إيفون خير ...

ـ وهل هذا عيب يابابا ؟ .. ألايجب أن أهتم بما ألبس؟

ـ اهتمى ... اهتمى يابنتى ...أرجو ألا يتعدى اهتمامك الملابس .

ـ ألاتحب أن ترانى جميلة يا أبى ؟

ـ أتبذلين كل هذا الجهد لأراك أنا جميلة ؟ .. إن كان هذا جميعه من أجلى أنا فأنا أراك جميلة على أى حال .

وأدركت إيفون مايرمى إليه أبوها ، لكنها اصطنعت أنها لم تفهم وقالت وهى تضع ذراعها على كتفى أبيها :

ـ أنت كل شىء لى يا أبى .

واحتضنته فى عنف حتى لقد أحس أبوها من قوة ذراعيها ما لم يحس قبل اليوم .. بل كاد يحس أنها تحتضن فى جسمه شخصا أخر غيره ، لكنه ماأسرع ماانفض هذه الخاطرة عن ذهنه وطوق ابنته بذراع حانية .

ـ ٥ ـ

بكرت إيفون إلى المرآة وراحت تتطلع إلى وجهها فهى على موعد مع عباس أن يلتقيا بالعربة ، شأنهما كلما جمع عباس أجر الركوب ! وراحت إيفون تمشط شعرها فى تأمل غائب ، فهى تجرى المشط فى اتجاهات مختلفة غير منتظمة . وكلما أفاقت طالعتها المرآة بشعر لايرضيها ، فهى تعود إلى التمشيط واعية أول الأمرثم ماهى إلالحظة أولحظات حتى تعود مرة أخرى غائبة غير واعية .

كانت إيفون سمراء سمرة خفيفة ، وكان شعرها أسود داكنا منسابا فى سيولة وانسكاب . وكانت عيناها أجمل ما فى وجهها : عينان كبيرتان يتعلق بهما سؤال مجهول من الأمر ، فما كانت إيفون تدرى ماذا تريد أن تعرف ، وإنما يحس الناظر إلى عينيها أنها تسأل عن شىء لا تدريه ولايدريه أحد . سؤال حائر يبحث عن شىء دون أن يعرف كنه هذا الشىء الذى يبحث

عنه .وكانت إيفون دقيقة الجسم رقيقة الأطراف سريعة الحركات والأفكار معا ، رشيقة فى حركاتها حائرة فى فكرتها .

وقد أحبت عباس وإن حبها له ليطغى فى كل يوم ، فهو أول من أسمعها هذه اللفظة الساحرة « أحبك ». ولم تفكر يوما فيما يؤدى إليه هذا الحب .. كل ماتدريه أنها تحبه وأنه يحبها ولاشأن لها بأعقاب هذا الحب أو نتائجه . إنما هى تهفو إلى هذا اللقاء المختلس فى العربة ، وإلى هذه الكلمات الهامسة التى تحاول أن تتخفى عن أذن عم جبر المتسمعة . وهى تفرح بهذا اللقاء وتضيق بانتهائه ، وهى تفكر كيف يمكنها أن تطيل منه؟ لقد طالما سألها عباس وألح فى السؤال كيف يستطيع أن يلقاها بغير حذر من جبر وبغير خوف من شارع المدرسة الذى يتحتم عليه أن يتركها قبل أن تبلغ بهما العربة أوله . وطالما فكرت فكانت تعود من أفكارها بالفشل . فكرت أن يلتقيا فى الحدائق ولكن كيف تخرج ؟ وفكرت أن يلتقيا فوق سطح المنزل ولكن سطح المنزل مكان عام تقصد إليه ساكنات العمارة جميعا ولا تنتهى الخادمات عن الذهاب إليه ، وفكرت وفكرت ولكن لم يعد عليها التفكير بمكان واحد موفق يخفيها عن العيون . ولقد كانت تفكر أيضا وهى تمشط شعرها

ولكن هيهات ،

وفجأة فتح باب حجرتها المؤدى إلى الشقة وطالعتها أمها صائحة :

ـ ألم تلبسى بعد ؟ والمسيح الحى إنك لن تفلحى عمرك ، ماذا بك ؟

وكانت إيفون قد انتفضت فى وقفتها فقد عادت بها أمها والباب الذى فتح فجأة إلى ماكانت غائبة عنه من موعد المدرسة ، بل من موعد عباس نفسه .وأفاقت إيفون وهى تقول:

ـ حالا ... حالا ياماما .

وقالت أمها وهى تخرج وتغلق الباب من خلفها :

ـ أسرعى ...

وسارعت إيفون إلى ملابسها فارتدتها ، واختطفت حقيبتها ومدت يدها إلى أكرة الباب المؤدى إلى السلم تفتحه. وقبل أن ترفع يدها عن الأكرة أومضت فى ذهنها فكرة. لماذا لايأتى عباس إلى حجرتى هذه ؟ ! لا ، لايصح ! لماذا لا ؟ لقد جعلوا لى هذه الحجرة بعد أن كانت حجرة الاستقبال لأتلقى فيها درس اللغة العربية من الشيخ عبد

الوهاب ، فقد كان أبى لايريد الشيخ أن يخترق البيت إلى حجرتى القديمة . كان أبى لايريد أمى أن تتحرج كلما جاء الشيخ وتقوم من مكانها لتخلى له الطريق ، فاقترح أن تكون حجرتى هى حجرة الجلوس هذه الواقعة على السلم . فما البأس أن تستقبل فيهاعباس فى الليل بعد أن ينام أبى وتنام أمى ؟ ما البأس ؟ ! فى حجرة نومى ؟ وهل هناك سبيل آخر ؟ ومادمت ألقاه فما الفارق بين حجرة نومى والعربة أو أى مكان آخر ؟ ماذا يقول عباس ؟ ! وماذا تراه يقول ؟ أليس هو من يلح علىّ فى أن أهيىء مكانا ألقاه فيه ؟ ماذا تراه يقول ؟ لابد أنه ...

وكانت إيفون قد استقرت فى العربة وكان عباس بداخلها ، وماأسرع ماقال :

ـ صباح الخير ... لكم اشتقت لك .

ـ صحيح ؟ !

ـ ألم تشتاقى لى ؟

ـ جايز .

ـ إذن فأنت لم تشتاقى لى .

ـ من قال لك ؟

ـ أنت .

ـ أنا ؟ !

ـ مامعنى جايز ؟!

ـ وماذا تريدنى أن أقول ؟

ـ مثلما أقول أنا ... لكم اشتقت إليك ياعباس ... إنك لم تقولى هذا أبدا.

ـ وهل لابد أن أقول حتى تعرف ؟

ـ وكيف أعرف إن لم تقولى ؟

ـ وهل أدرى ؟!

ـ فكيف أدرى أنا ؟

ـ أنا أعرف أنك مشتاق لى دون أن تقول .

ـ فأنت أذكى منى .

ـ لا ... ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟

ـ ولكنى أراك بقلبى .

ـ فكيف أراك أنا ؟

ـ بعينيك .

ـ الله يعلم كم أحبك والله يعلم كيف أراك ... إنى اراك

بعينى وبقلبى وبكل جارحة منى .

ـ فماذا تريدنى أن أقول ؟ .. ألم يخبرك قلبك ؟

ـ اريد لأذنى أن تستمتع بما يستمتع به قلبى وعينى ... قولى ... قولى ولو مرة واحدة ... اشتقت لك ، أو قولى أحبك ... أو قولى أى شىء تطرب له أذنى مثلما يطرب قلبى عند لقائك .

ـ كأنك سمعت .

ووقفت العربة وارتفع صوت عم جبر :

ـ اتفضل ياسى عباس افندى .

وهمس عباس :

ـ ألم تجدى مكانا ؟

واصطنعت إيفون الجهل بالسؤال :

ـ مكان ؟ !

ـ نعم لنلتقى .

ـ ها نحن نلتقى .

ـ إيفون ... أرجوك .

وضاق الأسطى جبر بالهمس الذى لايسمع منه شيئا فصاح:

ـ سى عباس .

فهمست إيفون :

ـ أتستطيع أن تأتى إلينا فى الساعة العاشرة ؟

وفاجأت الجملة عباس فصمت برهة ثم قال :

ـ إليكم ... فى بيتكم ؟ !

ـ حجرة الجلوس القديمة أصبحت حجرتى الآن ستجد بابها غيرمغلق .

ـ إيفون !

وصاح جبر وقد ازداد ضيقه بهذا الحديث الذى لايسمع منه شيئا :

ـ سى عباس .

ولم يلتفت عباس إلى جبر بل همس :

ـ هل أنت جادة يا إيفون ؟

وأومأت إيفون وقد شملت الحمرة وجهها أن نعم .

وهمس عباس مرة أخرى :

ـ أراك فى العاشرة ... العاشرة تماما .

ونزل من العربة وهو يقول :

ـ مع السلامة .

وساط الأسطى جبر خيله فاندفعت إلى الطريق ، وظل

عباس يرنو حائرا فرحا إلى العربة حتى أخفاها شارع المدرسة .

* * *

همس وهو يدخل :

ـ هل ناموا ؟

وهمست دون أن تدرى لماذا تهمس :

ـ نعم .

ـ فلماذا تهمسين .

وضحكت وهى تقول :

ـ لاأدرى ... لقيتك تهمس فهمست مثلك .

ـ أين ينامون ؟

ـ فى الناحية الأخرى من البيت ... أنت تعرف حجرة أبى ... ألاتذكرها ؟

ـ أنا لم أنس شيئا هنا أبدا ... إذن فهم لن يسمعونا أبدا .

ـ أبدا .

ـ هل أنت خائفة ؟

ـ أخائف أنت ؟

ـ أنا ... أبدا ... أبدا .

ـ بل أنت خائف .

ـ ألايستيقظ أحدهما فى المساء ؟

ـ إذا مادخلا حجرة النوم فإن أحدا منهما لايتركها إلا فى الصباح .

ـ إذن فلا داعى للخوف .

ـ ولكنك خائف مع هذا .

ـ أبدا .

ـ ها نحن التقينا على انفراد .

ـ نعم .. نعم .

ـ هل كان عم الشيخ سلطان صاحيا حين نزلت ؟

ـ هه ... نعم .

ـ ألم تخف أن يراك ؟

ـ وماذا لو رآنى ؟ !

- يضربك .

ـ يضربنى ؟ ... يضربنى أنا ؟ ...لم يبق لى إلابعض شهور وأصبح فى الجامعة ويضربنى !!

ـ ألم يضربك منذ قريب لأنك لم تصل الفجر حاضرا ؟

وارتسمت الدهشة على وجه عباس ...وصمت وأحس

ومالبث احساس بالغيظ أن ملأ نفسه من أخته وهيبة ، ثم مالبث إحساس بالغيظ أن ملأ نفسه من الصلاة جميعا ، وأقسم فى نفسه لايصلى إلا إذا اجبره أبوه على الصلاة ، ثم عاد إلى خزيه مرة أخرى ووجد نفسه واقفا ازاء إيفون فى أول لقاء لهما بنجوة من العيون والآذان ، ثم هو صامت ولكنه مع ذلك لم يجد شيئا يقوله . وأدركت إيفون مايدور فيه من خزى فقالت فى بساطة :

ـ ماذا ؟ هل زعلت لأنى قلت إن أباك ضربك ؟

وأطرق عباس وهو يقول :

ـ لا أبدا .

ـ وماذا يهمك ؟ .. أناأعرف أنه يضربك كلما قصرت فى الصلاة ومع ذلك فأنا ...

ورفع لها وجها مليئا بالأمل أن يسمع منها ما لم تقله وقال فى لهفة :

ـ هيه ...

ـ هيه ماذا ... ؟

ـ فأنت ماذا .. ؟

ـ ماذا تريد أن تسمع ؟

ـ ألاتعرفين ؟

ـ لا .

ـ قوليها ... قوليها وحياة النبى ...

وضحكت إيفون ضحكة خبيثة فيستدرك :

ـ وحياة ... وحياة ... وحياتى أنا .

ـ ماذا تريدنى أن أقول ؟

ـ أحبك .

ـ وهل تريد دليلا ؟

ـ أريد أن أسمعها .

ـ أيهما أحسن عندك أن أدعوك إلى حجرتى هنا أم أن أقول لك ... ؟

ـ هيه ... قولى .

وهمست إيفون :

ـ أحبك .

واغرورقت عينا عباس بالدموع طفرت فجأة ، ووجد نفسه وقد انتابه صمت فرحان ، فقلبه وجيب وعيناه ضياء ووجهه فرحة . أراد أن يقول شيئا فلم يجد ما يقول ، ثم التذ هذا الصمت الذى مازال صدى الكلمة يرن فيه ، وكأنما أراد

لهذا الصمت المندى بما سمع ألايقطعه شىء ، وتمنى أن يظل فيه لايخرج منه وأن يظل هذا الصدى يملأ حوله كل ما حوله ويملأ من نفسه كل نفسه ، لايشوبه شىء من حديث يطمس ما أشاعته فيه « أحبك » من نغم كان نشيدته منذ سنوات وسنوات .

وأحست إيفون بالفرحة الكبيرة التى يحياها عباس. ووجدت نفسها تفرح معه فإذا فرحتها ابتسامة عريضة على فمها وهمسة مجنحة :

ـ استرحت ؟

ولم يستطع عباس أن يجيب وإنما كل ما استطاع هو أن يخطف يدها ويهوى عليها ليقبلها فى جنون فرحان ، وانحنت عليه إيفون تربت كتفه فرفع عينيه إليها فوجد نفسه يلقفها بين أحضانه والتقت الشفاه فى قبلة طويلة .

وحين افاقت إيفون من حميا القبلة أخجلها أن تقبله مثلما قبلها ، فقالت فى حزم :

ـ انزل .

وأطرق عباس بين إحساس هين من الدهشة وإحساس عميق بالخجل . وعادت إيفون تقول :

ـ انزل .

وقال عباس :

ـ متى أجىء ؟

ـ لاأدرى ... إنما يجب أن تنزل الآن .

ـ أجىء غدا ؟

ـ لاأدرى ... أرجوك ...أرجوك ... انزل .

ـ أمرك .

وتوجه عباس إلى باب الحجرة ، وقبل أن يخرج هم أن يقول شيئا ، ولكنه عاد إلى طريقه من الباب وخرج .

وما أن أغلق عباس الباب من خلفه حتى ارتمت إيفون على سريرها وراحت تحدق إلى سقف الحجرة مفكرة فى ذهول خجل حيران .

ـ ٦ ـ

كان ليوم الجمعة مراسم جامدة فى بيت الشيخ سلطان لم تتغير منذ وعى عباس أمره ، ويخيل إليه أنها لن تتغير أبد الدهر ؛ فإن الشيخ يستيقظ فى الفجر ويصلى الفجر جماعة يؤم أهل بيته جميعا ، ثم يتناولون فطورهم ، ويخرج الشيخ سلطان إلى بيت رضوان أفندى فيصحبه إلى قهوة السيدة فيظلان يلعبان النرد ويشترك معهما مرقص أفندى . وكان مرقص أفندى إذا لعب يحس رائيه أنه ينظر إلى متعبد راكع فى معبده المقدس ، لاشىء يتحرك فيه إلايداه تلقيان الزهر وعيناه تتابعان أصابع غريمه ، بينما كان رضوان أفندى والشيخ سلطان يزيطان كلما أصابا أملا فى النجاح ، وما أسرع ما تجرى على لسانيهما « العب سيجة » ، « مالك أنت وهذه المسائل المهمة ياعم مرقص ؟ » .وفى أغلب المرات يتغلب مرقص أفندى على هذا الزائط ، ولم يكن مرقص أفندى حينئذ يهيج

هياجهما ولاهو يسخر ، وإنما يكتفى بنظرة لابد أنه كان يعرف مدى ماتحمله من إيلام . وكان المغلوب منهما يحس وقع النظرة المخترقة الهازئة فيتمتم « زهرأعمى ابن كلب » . ولايكتفى مرقص أفندى بالإخجال الذى ألقى إليه صاحبه ، وإنما يمد أصبعه السبابة ويحركها يمنة ويسرة يريد من المغلوب أن يقوم ليحل الآخر محله .

وكانت هذه الحركة الصامتة أشد إيلاما من النظرة .وكان الشيخ سلطان ورضوان أفندى كلاهما يتقبل هذا الذى يحصل لهما فى مقابل الزياط الذى يهدران به طوال اللعب . وقد كانت المباراة بين ثلاثتهم يومية لاتنقطع ، وقد تكوّ ن لهم متفرجون احترفوا التفرج كما احترف الثلاثة اللعب . وقد كان المغلوب يدفع الطلبات ، وكان سلطان يناقش نفسه فى هذا الدفع ، وكانت المناقشة تبدأ دائما كلما اضطر هو إلى الدفع ، أليس هذا قمارا ؟ ! وتجيبه نفسه الغاضبة لأنه دفع : « إنه قمار » . ولكن مايلبث أن يتذكر الحديث الذى كان يقبل به أن يدفع له : إنما الأعمال بالنيات . وهو حين لعب لم يقصد القمار ، كما أنهم الثلاثة أصدقاء ، وأى واحد منهم يجوز أن يدفع عن الآخر بلا لعب وإنما اللعب تسلية . وتقتنع نفس الشيخ سلطان أنه ليس

قمارا فيهدأ ضميره الدينى وإن كان ضميره المادى يحاسبه على صرف النقود فيما لايفيد يظل ثائرا غير هادىء .

هكذا كان الحال مع الشيخ سلطان ، أما الشأن مع عباس فهو مرتبط بأبيه غاية الاتباط ، فقد كان أبوه ينتظره فى القهوة حتى موعد خطبة الجمعة . وكان عباس يذهب مصطحبا صديقه الأثير شعبان نوار وابن خالته لطفى الذى أخذ يصلى منذ أراد من الصلاة أن تشعره أنه كبير مثل الكبار ، يضع المنديل على رأسه المبلل وينتظم فى الصف له فيه مكان مثل مكان الرجل الكبير ، ثم هو بعد ذلك يؤدى من الحركات مايؤدون . وكان الثلاثة يقصدون إلى القهوة فيكون مجيئهم إيذانا للشيخ سلطان ورضوان أفندى أن يؤجلا العشرة مع مرقص أفندى إلى وقت أخر .

وقد كانت وظيفة الشيخ سلطان فى الوعظ والإرشاد ، وقدمه فى هذه الوظيفة ، تجعل الأئمة فى المساجد يتنحون عن منابرهم ليلقى هو الخطبة . وقد كان فرحا غاية الفرح بما يتاح له من هذا التنحى ، لم يقلل من هذا الفرح تكرار السنوات بعد السنوات ، ولم تنل من فرحته ماتنال العادة وقدمها من كل فرحة فرحان . ولم ينس الشيخ سلطان فى مرة من المرات أن

يسأل ابنه وهو يلبس الحذاء خارجا من الجامع .. « هيه ياعباس مارأيك » .

وكان عباس فى أول الجمع التى سمع فيها أباه يتدفق بالمديح له ، وكان مؤمنا بمايقول فرحا به . ثم أصبح يتدفق بالمديح منافقا فى بعضه صادقا فى بعض منه آخر . ثم صار يتدفق به نفاقا جميعا . ثم ضاق بالتدفق فصار يقصر مديحة على كلمتين أو ثلاث أصبحت واحدة . ثم صار يدغمها فلا يسمعها أبوه وإنما يستنتجها . ولم يخف على الأب هذه التطورات الى مر بها مديح ابنه لخطبته ، لكنه مع ذلك لم يعف ابنه من السؤال ، أو يعف أذنه من تلمس هذه الكلمة المبهمة التي تنفرج عنها شفتا ابنه دون أسنانه .

أما رضوان أفندى فقد كان كل جمعة يمدح عديله بنفس الهمة التى سمعه بها عباس أول ماسمعه ، لم يفتر يوما ، ولم ينقص كيل مديحه شيئا ... هو هو منذ وعى عباس الصلاة ... وقد كان عباس يعجب .. كيف والخطبة واحدة من عشرة أو واحدة من عشرين لم يزد عليها شيئا منذ سمعها فى الجمعات الأولى حتى هذه الجمعة التى يشرف على بواكيرها .

استيقظ عباس فى الفجر مرغما على ذلك إرغاما ووجد

نفسه يذهب ليتوضأ ، وأحس كأنه آلة . ثم وجد نفسه واقفا فى الصف خلف أبيه . وبدأت مراسم الصلاة ، ومرة أخرى أحس أنه يتحرك حركات آلية ... قرأ القرآن فوجده فى فمه ولم يحس به فى قلبه ، وكان يطرق بعينيه إلى الأرض ولكنه لم يكن يحس الخشوع ، وانتهت الصلاة وعاد إلى حجرته وراح يصلح الراديو الذى أحضره إليه صديقه شعبان . كان يفك المسامير ويربطها ممسكا فى يده بالمفك ؛ وأحس أن الصلة بينه وبين المسامير وبين قطع الراديو التى يصلحها قوية ، فهو فرح أنه يلف المفك فى يده فيربط المسمار ، ويمسك السلكين ويلف أحدهما بالآخر فيرتبطان ، وأنه يفتح زرا فيوقد مصباحا . أحس وهويقوم بهذه العمليات جميعا أنه فرحان يستطيع أن يسيطر على هذه الآلة التى يصلحها وأن يفعل بها مايشاء ، وأحس فى الوقت ذاته أنه فى بعض الأحيان يكون مثل هذه الآلة التى فى يديه . غير أنه أحس أيضا أن اليد التى تتولى الفك فيه والتركيب لاتصلحه وإن كانت تظن أنها تصلحه ... داخله شعور أن هذه اليد تزيد نفسه تخريبا وهدما وتدميرا .

وحاول أن ينفض عن نفسه هذا الشعور ولكنه لم يستطع . وجاء نداء أبيه من البهو فوجد نفسه يقول فى سرعة :

ـ حاضر .

ثم وجد نفسه يقوم إلى أبيه . وكانت مائدة الفطار معدة فجلس إليها . وانتهى الطعام فقال أبوه وهو يفتح الباب الخارجى :

ـ لاتتأخر .

ـ حاضر .

ونزل أبوه وعاد هو إلى حجرته ، ووضع ملابسه ومكث ينتظر صديقه شعبان . ومالبث الصديق أن جاء ونزلا معا وراحا يضربان في الطرقات الضيقة حتى بلغا حارة البابلى . وهناك رأى الصديقان أطفالا يقفون أمام قراجوز وقد فغرت أفواههم لاينطقون إلا بالضحك ، وشخوص القراجوز منهمكة فى تمثيلها . ووقف عباس وشعبان وحاول شعبان أن يسخر من هذا الذى يسر الأطفال ، ولكن عباس لم يستجب لسخرية صديقه بل ظل واجما . لقد أحس أنه مثل هذه الدمى التى تتحرك ، ووجد نفسه دون أن يفكر يحرك يديه فى حركات كثيرة متباينة يريد الوثوق أن الخيوط التى تحرك الدمى لا تمسك خيوط مثلها بأذرعه ويديه ؛ ولكن حركاته لم تستطع أن تقنعه أنه حر .

وحاول أن ينفى عن ذهنه هذه الخواطر فخذله تفكيره ، والتفت إلى شعبان فجأة وقال له :

ـ سلام عليكم .

والتفت عنه وسار ،وقال شعبان فى دهشة :

ـ ماذا ؟

ولم يجب عباس وعاد شعبان يقول فى صوت مرتفع :

ـ أين ستصلى الجمعة ؟

وقال وهو سائر دون أن يقف :

ـ لن أصلى .

وعلا صوت شعبان :

ـ وماذا أقول لأبيك ؟

وقف عباس فجأة ثم تابع مسيره دون أن يتكلم ، وراح شعبان ينادى فى إلحاح فلم يلتفت إليه ، حتى إذا يئس صديقه من عودته أخذ يضرب كفا بكف وهو يقول :

ـ لابد أنه جن .

* * *

سار عباس دون أن يختار طريقا ، وراح يسرع الخطو أحيانا ثم يعود فيتمهل محاولا دائما أن يؤكد لنفسه أنه

يستطيع أن يسير بالسرعة التى يريدها لنفسه ، وأنه ليس دمية ، و أنه لن يصلى الجمعة ، وأنه حر ... حر ... حر ؟ !

ولم يخل طريق اختاره من جامع والناس تدخله أفواجا ، فكان يعرج عن الطريق إلى آخر حتى يعترضه جامع آخر ؛ لم يستطع أن يهرب من الجوامع أبدا .

وأخيرا علا صوت الأذان « الله اكبر » وأحس لها صدى عميقا فى نفسه ... ماهذا الوجيب الذى يستقبل به الأذان ... لماذا ؟ ألأنه يحس أن هذا الأذان قد شق السنين يسلمه جيل إلى جيل لم يهن ولم يضعف عل مدى الآلاف من الأيام ، ومازال نديا جديدا فيه حلاوة الشباب وجلال المشيب ؟ ما هذا الرنين الذى يحسه وهو يسمع « الله أكبر » ؟ألأنه أكبر فعلا؟ وإن لم يكن فمن أكبر ؟ ! ومرة أخرى راح يسرع الخطو محاولا أن يبتعد عن الأذان ، ولكن صوت الأذان ظل يلاحقه ويلاحقه يزداد قوة كلما ابتعد عن المئذنة .

وبلغ شارع الترام فعلا صوت الترام فى أذنه حتى طغى على النداء الذى يلاحقه . وحين خيل إليه أنه تخلص من صوت الأذان وقف أمام الترام وراح يتطلع إليه فى إعجاب .

* * *

عاد الشيخ إلى البيت ثائرا ثورة جامحة ، ولقيته زوجته زكية وراحت تحاول تهدئته ولكن كيف له أن يهدأ ؟ .. حتى عباس . أما يكفيه هؤلاء الناس جميعا يخرجون عن الدين ولايحفلون بأوامره ونواهيه حتى يفجعه ابنه ، فلذة كبده ؟ ابنه الوحيد لايصلى الجمعة !

ويا ليته كان مريضا إذن لهان الخطب ؛ ولكن ابنه غيرمريض بل ها هو ذا حتى لم يعد إلى البيت .أيكون قد أصابه حادث ؟ لا ، فلو كان لقصد إليه شعبان فى القهوة وعرف النبأ فى حينه . هو المروق والعصيان لا شىء آخر . إذن فالويل له ثم الويل ! أيظن أن ذهابه إلى الجامعة معفيه من العقاب ؟ إن حق الله فوق كل شىء .وهل الجامعة تبعده عن يد الأبوة ، ليعلمن أى جرم ارتكب وليذوقن ويلا وثبورا .

ولم يطل انتظار الشيخ وإن خيل إليه أنه طال ، وعاد عباس . ولقيه أبوه وقد اختلط احمرار وجهه باحمرار عينيه ، وذهب به إلى حجرته وأغلقها بالمفتاح وعاجله :

ـ أين كنت ؟ !

ـ لم ... لم أكن .

ـ لماذا لم تأت إلى الجامع ؟

وصمت عباس وقال أبوه محنقا :

ـ انطق .

ـ كنت ... كنت ...

ـ انطق ... أين كنت ؟

ـ كنت أسير فى الطرقات .

ـ ماذا ؟

ـ أردت أن أسير فى الطرقات .

ـ أردت ماذا ؟

ـ أليس هذا من حقى ؟

ـ وحق الله ياكافر يا ملعون !!

ـ لابد أن أكون مقتنعا بالصلاة حتى أصلى .

ـ مقتنعا ؟

ـ نعم ... أليست الحرية هى أهم شىء فى الوجود ؟ !

ـ فأنت غير مقتنع بالصلاة ؟

ـ لا .

ـ أنا أقنعك .

وقام الشيخ سلطان إلى عصاه وانهال على فتاه فى عنف مغيظ ، ولكنه رأى عجبا . كان الفتى إذا ما تعرض للعصا

راح يذود عن نفسه بذراعيه ويتوسل إلى الكراسى والأثاث أن يحميه ، ولكن عباس فى هذه المرة ظل واقفا مكانه لم يتحرك وترك العصا تنزل على كل مكان فيه كأنما هى تضرب شيئا لا أثر فيه من الحياة . وانتبه الشيخ إلى جمود ولده فجمدت العصا فى يده و راح يحملق فى عباس حائرا بين الدهشة والغيظ .

وقال عباس فى جموده لايزال :

ـ أتريد شيئا آخر يا أبى ؟

وقال الشيخ سلطان فى ثورة مشوبة بالدهش :

ـ اخرج .. اخرج ... اخرج .

وظل يكرر الكلمة لم يسكت عنها حتى بعد أن غادر عباس الحجرة وأغلق الباب من خلفه .

ـ ٧ ـ

نعم . ولكنى تحررت من كل شىء . من ذلك الخوف الذى لايزال يلازمنى حتى وأناأقبل إيفون . كنت أحس استسلامها بين ذراعى ولاأجرؤ على شىء فأنا خائف ، الخوف ينبعث من داخلى لا أدرى مأتاه ولا دوافعه . تحررت اليوم . نعم تحررت .

وخرج عباس من البيت وقد أحس أنه خفيف يكاد يشعر أنه على غير صلة بالأرض ، ويكاد يظن أنه تخلص من الجسد فروحه أثيرية مهومة بلا حدود ، فما هى من ذلك الجسد المادى فى شىء ...حر ... حر ... لايحس بألم العصا ، بل يحس فقط أنه حر .

استطاع أن يقول ما يريد ، ولا يشك فى أنه يستطيع أن يفعل مايريد ... مايريد هو لا مايريد له أبوه ... سيذهب حيث يحلو له أن يذهب ، ولاصلاة فى الفجر ، ولا صلاة فى

يوم الجمعة ، ولا صلاة على الإطلاق .

وإنه ليعجب كيف تأخر إلى اليوم ليعلن إلى أبيه عن حقيقة مشاعره ؟ كيف استطاع أن يخادع نفسه ويخادع أباه طوال هذه الفترة ؟ سنة ونصف سنة ... منذ أول يوم دخل إلى كلية الهندسة ... منذ ذلك الحين أصبح واثقا أنه لايؤمن بالله ... ولايؤمن بغير الإنسان ... الإنسان وحده هو الحقيقة الثابتة فى الوجود ... إليه وإليه وحده يرجع الحق فى تقرير مصير نفسه . لاشأن له بأى قوة أخرى غير قوته هو وإرادته هو. . وهو وحده يحمل تبعة أعماله من واقع الحياة نفسها بغير هذا الخرف الذى يسوقه رجال الدين عن الجنة والنار والآخرة والأولى والثواب والعقاب .

عجيب أمرهؤلاء الناس !! العالم يتحدث عن الذرة وبلوغ القمر وهم لايزالون يفكرون فى هذه الحركات. الإنسان وصل إلى السماء واخترق بعلمه الحجب وسابق النجوم فى مسالكها وشعب مصر المخدور ما يزال يدخل إلى الجوامع ويسمع من أفواه المشايخ أنباء السماء والجنة والنار ! الإنسان سيطر على السماوات وهؤلاء لايزالون يظنون أن الجنة والنار مخبأتان فى مكان لا يعرفه إلا علام الغيوب ! ولايكتفى أصحاب

العمائم بهذا بل ويريدوننا نحن رجال العلم أن نصدق مايهرفون به .

ولا يكتفى أبى بأنه يريد بل يضربنى ... أعمال عبيد ... تعودوا العبودية منذ لا يذكرون متى ، واتخذوا طريقهم فى حياتهم تدفعهم المخاوف والسياط . فرجل الدين يصلى لأنه يخشى نار جهنم لا لأنه يؤمن بالله ، وأبى يضربنى لأنه يخاف على نفسه أولا من هذه النار ثم يخافها على ... لم يؤمنوا بأنفسهم ولا بحقهم فى الحرية وإنما آمنوا فقط بالرعب تلقوه جيلا عن جيل ، فالرعب هو حياتهم والقلق والخوف والرهبة من الدنيا والآخرة هى مسابح تفكيرهم ، منها تكونت دوافعهم ومن وحيها تبلورت آمالهم ... عبيد يعجبون غاية الإعجاب بقواعد الدين وأوامره ونواهيه ... كأنهم أطفال يريدون السور تحددت معالمه لايخرجون عنها... أى إنسان لا يعرف أين الخير وأين الشر ؟ أنا أعرف وكل إنسان يستطيع أن يعرف الخير والشر من طريق الحياة الذى يخطه هو ، فى غير حاجة إلى هدى من السماء . يجب ألا تكون السماء بالنسبة إلينا نحن البشر من جيل الطاقة الذرية ... يجب ألا تكون السماء إلا معملا لتجاربنا وميدانا يتسابق فيه أبناء البشرية أيهم

يبلغ من أسرارها مالم يبلغه الآخر . السماء ليست إلا معملا للتجارب شأنها شأن المعمل الكيماوى ـ سواء بسواء ، وهى أيضا حلبة شأنها شأن ملعب الكرة سواء بسواء . إلا أن الأفكار تحل محل الكرة فى لعبة السماء هذه . السماء والأرض ملك يمينى أنا الإنسان ألعب فأبلغ أقصى قمم السماء ،. أو ألعب فأبلغ أعمق أعماق الأرض لا أعرف شيئا فى العالم أقوى منى ... منى أنا الإنسان . أخيرا استطعت أن أجد نفسى وأعرف طريقى ، لا خائفا ولا قلقا .. أخيرا استطعت أن أنفض عنى ذلك الرعب الذ ى يملأ نفسى وحياتى وأحس به يمسك يدى وقدمى ، بل أحس به يمسك عواطفى ... ومشاعرى تخشى أن تنطلق ، بل تخشى حتى أن تهجس بوجودها فى نفسى .

كان عباس يسير مستغرقا فى أفكاره هذه ينقله طريق إلى طريق دون أن يختار ، فقد كان ضجيج أفكاره فى نفسه عاليا ، وكان إحساسه بأنه حر يملأ عليه نفسه جميعا . وحين انتبه وجد نفسه فى طريق مغلق لايؤدى إلى شىء إلا إلى مسجد صغير تشرئب منه إلى السماء مئذنة جميلة .

ووقف عباس مذهولا ، فما كان يدرى أن قدميه ستقودانه

إلى طريق مغلق . ولو أن شعورا لم يدر مأتاه داخله أن الطريق ليس مغلقا . فأنعم النظر وأنعم ، ثم لم يجد أمامه بعد ذلك إلا أن يعود مطرقا يلتمس طريقا آخر . ولكن إلى أين ؟ كانت الساعة قد شارفت الثانية وقد تعود أن يأكل فى هذا الموعد ، وهكذا وجد نفسه جائعا ... وتذكر أن أباه قال له «لاترنى وجهك » وأنه أزمع فعلا ألا يريه وجهه لبضعة أيام على الأقل . وهكذا انتهى إلى أنه لاسبيل له أن يذهب إلى البيت فهو إذن لا سبيل له إلى الطعام ، فالنقود معه لاتكفى أكل قطة ...ومع تعذر وجود الطعام ازداد شعور عباس بالجوع، وفجأة وجد نفسه يفكر أن الحرية التى حصل عليها ليست كاملة ، وضاق بهذا الجوع ... هذا الشعور السخيف الذى ثلم شعوره بالحرية والذى سخر ـ بعض السخرية ـ من فرحته بها ، والذى ملأه سخطا وتبرما ، فإن الشعور بالجوع كان دائما يسلمه إلى حالة من الضيق والغضب .

وخطر فى ذهنه ألاسبيل له إلاأن يذهب إلى بيت خالته ويتناول غداءه معهم ، ولاشك أن ليلى ستسر برؤيته ... ليلى؟! ما له ذكر ليلى ولم يذكرخالته ؟ !.

ـ ٨ ـ

كانت إيفون تجلس إلى ابنة عمها منى ، وقد كانتا لاتحسان بالوقت إذا انفردت بهما الجلسة . كانت إيفون تعرف كل خافية لمنى كما كانت منى تعرف كل خافية لإيفون. وكانت منى تعلم بين ماتعلم هذه العلاقة التى درجت بين عباس وبين إيفون والتى بدأت باللقاء وانتهت إلى القبل ثم تجمدت مظاهرها لم تتطور وإن كان دبيبها فى قلب الحبيبين يزداد ضجيجا ونيرانها فى عروقهما تزداد اشتعالا .وكانت منى لا تنى تقول لإيفون كلما تحدثتا عن هذا الحب :

ـ وما النتيجة ؟

وتجيب إيفون :

ـ وأى نتيجة تريدين ؟

ـ النتيجة الطبيعية لكل حب هوالزواج .

ـ وما المانع ؟

ـ كأنك لا تعرفين ...

ـ تقصدين اختلاف الدين ؟ !

ـ وهل هذا قليل ... أنت تعرفين شدة عمى مرقص وعمتى مريم فى هذه الناحية .

ـ الدين محبة ،والمسيح سلام ...

ـ أجل ولكن هناك تقاليد دينية لا يمكن الإعتداء عليها .

ـ المسيح يقول « أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم » فكيف لا يريد منى أن أحب من يحبنى وأبارك من يباركنى وأحسن إلى من يحسن إلىّ .

ـ أتحاولين أن تقنعينى أنا أم تحاولين أن تقنعى نفسك ؟

ـ أنا لا أحاول إقناعك أو إقناع نفسى ، إنما أقول لك ما يدور فى نفسى .

ـ هل أنت واثقة من حبه كل الثقة ؟

ـ وثوقى من أننى أراك الآن .

ـ وأين وقفت العلاقة بينكما ؟

ـ على ما تعرفين .

ـ لم تزد ؟

ـ لم تزد !

ـ حذار يا إيفون .

ـ إنه أشد منى حذرا .

ـ أبوك يقتلك !

ـ لاتخافى .

ـ أناخائفة ياإيفون من عواقب هذه الصلة .

ـ أنا مطمئنة إليها .

ـ أرجو أن أطمئن مثلك .

ـ وأنت ماذا فعلت مع ميشيل ؟

ـ وماذا يمكن أن أعمل ؟

ـ سيأخذ الليسانس هذا العام ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، ولكنه سيتقدم إلى أبى قبل ذلك .

ـ وماذا يدعو إلى العجلة ؟

ـ سمع أن هناك كلاما حول شخص آخر .

وضحكت إيفون فى خبث .

ـ سمع ... ؟ ! طبعا لابد أنه سمع من منوم مغناطيسى.

وفهمت منى الإشارة فابتسمت وقالت :

ـ ألم أقل لك إن المهندس الذى يعمل بالتليفونات والذى

يسكن البيت المقابل حاول أن يتعرف بأبى ؟

وازدادت ابتسامة إيفون وهى تقول :

ـ منى .. أتحسبيننى ميشيل حتى تحاولى أن تضحكى علىّ أنا الأخرى ؟ أى مهندس تليفونات ؟

وقالت منى بين الابتسام والخجل :

ـ صحيح وحياتك .

ـ دعى حياتى ياخبيثة ، لفقت للشاب حكاية لتعجلى بالخطبة .

واستسلمت منى :

ـ وماذا أفعل ؟ إنه يريد أن ينتظر حتى ينال الليسانس ، ومن يدرى لعله بعد الليسانس يقول انتظرى حتى انتهى من التمرين ، وتمر السنون . لابد أن نتصرف قليلا يا إيفون .

ـ وهل أفادك التصرف ؟

ـ طلب مقابلة أبى .

ـ وماذا قال عمى شفيق ؟

ـ سيقابله يوم الاثنين القادم .

ـ نفعت الشغلة .

ـ طبعا ، وهل نلعب؟

ـ مبروك يامنى .

ـ العقبى لك .

ـ ياليت .

ـ ولو أنى لا أدرى كيف سيتم هذا .

ـ سيتم كما يتم كل زواج.

ـ الظاهر أن الحب أنساك أخلاق أبيك وشدة تدين أمك .

ـ كل ما أعرفه أنى أحبه وأريده وأنه يحبنى ويريدنى : والزوج والزوجة هما أهم عنصرين فى الزواج ، بل هما العنصران الوحيدان فيه ، وكل ما عدا هذا قشور .

ـ التقاليد والدين وأبوك وأمك .

ـ المهم أنا وهو ... وفقط .

ـ كم أنا خائفة !

ـ ولكنى أنا غير خائفة ...اطمئنى .

ـ أرجو أن أطمئن .

* * *

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة وعباس ما زال يرود الشوارع بلا عمل ، إلا أنه لايريد أن يعود إلى أبيه . ولم يكن

على موعد أن يذهب إلى إيفون فى يومه هذا ولكنه لسبب لايدريه وجد نفسه مشوقا إليها ، كما وجد فى نفسه الجرأة أن يتجه إلى بيتها ويصعد إلى حجرتها دون أن يخشى مغبة هذا الذهاب المفاجىء ، وماقد يكمن فى حجرتها التى لم تتوقعه من مفاجآت . قدر هذه المفاجآت جميعا ولكنه استهان بها وانطلق فى تصميم إلى حجرة إيفون .

وطرق الباب وكانت إيفون قد ارتدت ملابس النوم ، وماكانت هذه الملابس شفافة ولاهى مما تزيد المرأة جمالا . كانت جلبابا من القماش العادى . وأدركت إيفون أنه هو الطارق ، وفكرت فى أن تغير ملابسها ولكنها خشيت وقفته الطويلة أمام الباب فلم يطل ترددها . وفتحت لعباس الذى وقف صامتا جامدا إلى الحجرة . وقالت إيفون :

ـ خير ياعباس ... هل هناك شىء ؟

ـ لا أبدا ... ألأننى جئت على غير موعد ؟ لقد أردت أن أراك ... هذا كل ما هناك .

ـ وأنا أريد أن أراك دائما .

وفى هذه الليلة تطورت العلاقة بين إيفون وعباس بعد أن تخلص عباس من الخوف الذى كان يداخله . وباتت ايفون

فى ليلتها تلك وقد ودعت عهدا من العذرية والبراءة لتستقبل عهدا جديدا لاتدرى مامصيرها فيه .

* * *

ذهب عباس إلى البيت ، وحين شارفه رأى حجرة أبيه مضيئة ، بل رأى الشقة جميعها مضيئة . فسارع الخطو حتى إذا بلغ الباب الخارجى وجد وهيبة واقفة وحدها تكلم لطفى ، وثار لهذه الوقفة وغضب أن يرى لطفي وحيدا مع أخته فقال له فى حدة :

ـ ماذا تفعل هنا يا لطفى الآن ؟.. وأنت ماذا تفعلين ؟

وكانت لهجة صارمة حتى أحس الاثنان أنهما يرتكبان ذنبا هما براء منه . واستطاعت وهيبة فى ثقة أن تخبره أن أباها وأمها والجميع قلقون لغيابه طول النهار ، و أن لطفى كان يبحث عنه وقد جاء ينبئها أنه لم يجده .

واستأذن لطفى دون أن يقول شيئا إلا تحية واهية ألقاها عفوا ، ثم استدار وانصرف .

وقال عباس لأخته :

ـ اذهبى فقولى لأبى إنى جئت .

ـ وأنت لماذا لا تدخل إليه ؟

ـ إنه لايريد أن يرانى ... أنا ذاهب إلى حجرتى .

وصعد الأخوان واتجه عباس إلى حجرته ، وذهبت وهيبة إلى أبيها وأمها فأخبرتهما بمجىء عباس ، فإذا الشيخ سلطان يقول فى غضب مرتاح هادىء :

ـ لا وعى يجىء ...جاءته داهية .

وانتفضت زكية تقول فى خوف :

ـ لاحول إلا بالله ياشيخ سلطان ... لماذا يا رجل ؟ .. إنه ابنك .

ـ ابنى ... ابنى ... أنا براء منه ليوم القيامة .

وتقول الأم المسكينة فى إذعان :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله ...لاحول ولاقوة إلا بالله .

- ٩ -

كانت ليلى جالسة فى حجرتها تقرأ ، وتحاول أن تقرأ فى إمعان ولكن بلا جدوى ، فقد كان علمها بهذه القطيعة التى يعانيها ابن خالتها عباس من أبيه تأخذ عليها تفكيرها . وهى تعلم عن عمها الشيخ سلطان المبالغة فى الغضب ، وتخشى أن يشغل الغضب عباس عن المذاكرة والإخلاص فى هذه المذاكرة لأن كلية الهندسة تريد من الطالب كل وقته ، وهى فى الوقت نفسه حائرة لاتدرى ماذا تفعل لتهيىء لعباس ما هو فى أشد الحاجة إليه ليفرغ لعلومه ... أتذهب إليه ترجوه أن ينصرف إلى المذاكرة ولايهتم بأى شىء سواها ؟ كيف تلقاه على انفراد ؟ أترسل له لطفى ؟ قد يظن لطفى أنها رسالة لا يليق به أن يحملها ، فإن معانى الرجولة فى ذهنه ما زالت مبهمة غير واضحة . أترسل أمها ؟ ما أيسر ماتقول أمها : « وأنت ما شأنك ؟ » فإن أمها تعتقد عن ثقة لا سبيل إلى الشك فيها أن

كل صلة بين رجل وامرأة لا تقوم إلا على الزواج أو الرغبة فى الزواج ، ولن تقبل أمها مطلقا التفسير الذى تقول به ليلى وهو أن عباس كأخيها وأن أمره يهمها لهذه الصفة وحدها ... لا ... لا تستطيع الست حميدة أن تعى هذا أو تفهمه . كيف إذن البلوغ إلى عباس ؟ إنه لا يقيم بالبيت إلا ريثما يتناول غداءه منفردا فى مواعيد غير منتظمة ، متحريا ألايلتقى بأبيه .. كيف السبيل إليه إذن ؟ لابد أن تحاول . وتركت الكتاب من يدها وقامت إلى باب حجرتها ونادت :

ـ لطفى ... لطفى .

وجاءها صوت لطفى من حيث يحاول أن يذاكر هو أيضا :

ـ نعم يا ليلى ... ماذا تريدين ؟

ـ تعال .

وحين جاء إلى حجرتها قالت له :

ـ أريد أن أذهب إلى بيت خالتى .

وطفرت ابتسامة إلى وجه لطفى ، ثم أعقبتها وجمة ، ثم وجد نفسه يقول فى غير تشبث ولاغضب :

ـ لا ... لا أريد أن أذهب إلى هناك .

ودهشت ليلى هنيهة ثم قالت :

ـ عجيبة ... منذ متى ؟ .. لقد كنت أنت من تتمحك في أن تذهب إلى هناك ... ماذا جد علينا ؟

ـ كان عباس فظا معى فى آخر مرة رأيته فيها .

ـ عباس ... ألا تعلم ماهو فيه الآن ...

ـ الذى أعرفه أننى لا أحب أن يكون أحد فظا معى .

ـ يا أخى هو لايقصد ، وأنت تعرف الأزمة التى يعانيها الآن ... هيا هيا ، لاتكن عنيدا .

ـ طيب ... انتظرينى حتى أغير ملابسى .

ـ وما لهذه الملابس ؟ إنها عظيمة .

ـ لا ... سألبس الحلة الجديدة ... انتظرينى .

وتخايلت ابتسامة على شفتى ليلى وقالت :

ـ إذن أسرع .

ولم يكن محتاجا لهذه التوصية فقد كان يريد أن يسرع فعلا ، ولكنه أيضا كان يريد أن يتأنق . وبين الرغبتين المتناقضتين كثر دهان الشعر حتى أصبحت رأسه كالحذاء اللامع، ولم يستطع أن يختار رباط الرقبة الذى يتفق مع الحلة الجديدة فقد ظل يجرب الأربطة الأربعة التى يملكها واختار أسوأها من العجلة ، ولكنه على كل حال استطاع أن

يلبس أخيرا وأن يخرج إلى ليلى . ولن يخطىء من يراه أن يدرك أنه بذل أقصى جهده ليبدو أنيقا ، ولكن جهده خذله فلم يستطع أن ينال مايصبو إليه . وترقرقت ابتسامة ذكية على شفتى ليلى أحنقت لطفى فقال :

ـ مالك ؟

وخشيت أن تثيره فقالت فى جد :

ـ لاشىء ... هيا .

ونزلا ... كل منهما يدرك مايريد ولكنه يحس كثيرا من سدوف الضباب تقف بين خلجات نفسه وبين شعوره الواعى ...كلاهما فى حيرة ذاهلة ، وكلاهما لا يبذل كثير جهد ليزيل حيرته أو يجلو الإبهام عن عميق مشاعره ...

* * *

كان عباس قد سئم من كثرة بعده عن البيت ، كما أحس أنه قد آن له العود إلى المذاكرة . وكان عباس أيضا يحس شعورا غريبا نحو إيفون ... إنه منذ تحرر من خوفه أحس كأنه أيضا يريد أن يتحرر من حبه ... لم يعد شغفه بالذهاب إليها ملحا كما كان قبل هذه الليلة التى ذهب إليها على غير موعد

.... ماالحب ؟ ! نوع آخر من العبودية ... ولكننى مع هذا أحب أن أذهب إليها ... بل وأحب أن أطيل الجلوس معها .. أحب ذلك ولكن لا كما كنت قبيل هذه الليلة . ويل لهذا الجسم إنه يستعبدنا كما تستعبدنا التقاليد وأوامر الآباء وآراء المجتمع وطقوس الدين ... ما الفارق بين هذه العبودية التى أدين بها للجسم وبين هذه الألوان من العبودية الى تحررت منها . هل أستطيع أن أتحرر من عبوديته ؟ ما هذا التخريف ؟ أتريد ألا تأكل ؟ .. كيف أستطيع أن أقاوم الجوع ... وكيف أستطيع أن أقاوم نزوعى إلى إيفون ؟ ومالى لاأقول حبى لإيفون ؟ .. إنه حب ... وإن يكن الشوق الصديان قد بلّ إلا أن حبها مازال .. نعم ... مازال فى قلبى ... وقد أصبحت وإياها اليوم أشد ارتباطا . وكيف لا .. ألست أنا ... أنا وحدى من شاركها فيما صارت إليه ؟ .. لقد فعلت وعلى أن أتحمل مسئولية مافعلت ـ وأنا بغيرتفكير ـ فى هذا الواجب الذى لابد أن أحمله وحدى ... أنا أحبها ... نعم أحبها .

واستطاع عباس أخيرا أن يفرغ إلى مذاكرته على هذه الثقة الى أودعها نفسه من أنه يحب ايفون ... واستمر عباس فى مذاكرته مقدرا أن أباه لن يلبث أن ينزل إلى القهوة دون أن

يحس بوجوده فى البيت ، ولكن خاطرا آخرشغله عن المذاكرة ... إنه فى حاجة إلى البيت ليذاكر ، وفى حاجة إلى أبيه ليعيش . فكيف إذن يريد أن يتحرر من أبيه ؟ وما لبث أن صرف هذه الخاطرة . لقد أحضره أبوه إلى الدنيا فعليه أن يتحمل المسئولية ، وليس على عباس أن يقدم إليه ضميره فى مقابل رعايته له ... إنه يحترمه ولكنه لايبيعه ضميره فى مقابل إيوائه ... وإن رأيه أكرم عنده من أن يذله ، وحريته أحب إليه من الدنيا كلها ... وقد نالها ولن يتركها تفلت من يده مرة أخرى ... وعاد إلى المذاكرة .

وأقبلت ليلى وسمع عباس صوتا من حجرتها ، فقام إلى البهو يلقاها ، وعاجلته ليلى :

ـ أنت هنا ؟ .. الحمد لله ...أريد أن أراك .

ـ وأنا أيضا أريد أن أراك .

وقالت وهيبة :

ـ تعالوا نجلس فى حجرتى .

وقال عباس :

ـ ولماذا لاتجلسون فى حجرتى أنا ؟

وظل لطفى رانيا إلى وهيبة غير واع لهذا الحوار حتى

دخلوا إلى حجرة عباس ، فدخل لطفى معهم تابعا وهيبة .

واستقر بهم المجلس ولم يكد حتى قالت ليلى :

ـ ماذا جرى يا عباس ؟ .. لم نرك منذ جئت إلينا وأخبرتنا أنك على خلاف مع عم الشيخ سلطان .

وسكت عباس وقالت وهيبة :

ـ قولى له ياليلى ... أيصح أن يغضب أباه ويرفض أن يعتذر إليه ؟

وقالت ليلى :

ـ وهيبة ، هل خالتى هنا ؟

فقالت وهيبة فى دهشة :

ـ أهذا جواب سؤالى ؟

وأعادت ليلى سؤالها :

ـ هل هى هنا ؟

وقالت وهيبة :

ـ لا ، لقد ذهبت لزيارة أم إيفون .

وقالت ليلى فى إصرار :

ـ إذ فأنا أريد أن أجلس وحدى مع عباس .

ودقت وهيبة صدرها قائلة :

ـ ماذا ؟

وقالت ليلى :

ـ هناك أشياء كثيرة أريد أن أحدثه فيها ولن يقولها أمامكما .

وقال لطفى وكأنما صحا فجأة :

ـ هل جننت ؟

فقالت ليلى :

ـ لاتكن أنت مجنونا .. اتركا الباب مفتوحا واجلسا فى البهو حتى إذا جاء أحد فادخلا ... لابد أن أكلم عباس فى هذا الخلاف بينه وبين أبيه .

وأثناء حديث ليلى خطر للطفى أن بقاء أخته وحدها مع عباس يفيد ـ ضمنا ـ أنه سيبقى وحده مع وهيبة ، وأدرك ألاحرج عليه أن يفعل فهو يعلم أن الحديث بينهما دائر حول الخلاف الناشب فى البيت . أما حديثه هو لوهيبة فاعتماده على الله وحده أن يهديه فيه سواء السبيل .وقال لطفى :

ـ تعالى يا وهيبة نجلس فى البهو .

وقامت وهيبة وتركتهما ، وبادرت ليلى عباس :

ـ أولا ، هل لما كنت تشكوه من أهمال أختك وأمك لك

دخل فى هذا الخلاف ؟

ـ لا ..هذا شيء تعودت عليه ...أصبحت أعلم أن أبى وحده هو رب البيت وأن إليه وحده يتجه التقديس وتقدم الخدمات ، أما أنا فشيء ضمن هذه الأشياء التى يقتنيها الناس، ولكن هذا وضع تعودته منذ نحن صغار ... أمازلت تذكرين هذا الحديث ؟

ـ إذن قل ما خلافك مع أبيك ؟

ـ قلت له لا أريد أن أصلى لأنى غيرمقتنع بالصلاة .

ونظرت إليه ليلى عاجبة ، ثم مالبثت أن قالت :

ـ ماذا فعل ؟

ـ ضربنى .

ووجد نفسه يقولها دون أن يحس الغضاضة التى كان يحسها حين كانت ليلى أو إيفون تعلم أن أباه ضربه .

وقالت ليلى:

ـ وبعد ؟

ـ لابعد ... هو لا يريد أن يرى وجهى ، وأمى ووهيبة تلحان على أن أذهب فأعتذر إليه ، ومعنى اعتذارى أن أصلى وأنا لن أصلى .

ـ فبماذا تؤمن ؟

ـ بالإنسان ... الإنسان الذى خلق الذرة وصنع الصواريخ.

ـ ولكن أليس بين هؤلاء العلماء الذين صنعوا الذرة والصواريخ من يؤمن بالله ؟

ـ لايمكن ... أيمكن لهذه العقول الجبارة أن تؤمن بالمعجزات من شفاء العمى ، والعصا التى أصبحت ثعبانا ، والميت الذى أصبح حيا ، وغيرها وغيرها .. أتعقلين أنت هذا ؟

ـ وكيف لا أعقله ؟

ـ أنت تصدقين هذه الأوهام .

ـ أنا أصدق كل المعجزات التى جاءت فى القرآن لاأستثنى منها شيئا .

ـ لايمكن . كنت أعتقد أنك أعقل من عرفت .

ـ ولهذا أومن بهذه المعجزات .

ـ أنا لاأصدق ماتقولين ... أنت مازلت أسيرة فى قيود التقاليد والأوهام !

ـ بل إنى أعى ماأقول ، وأقوله وأناأحس بحرية كاملة فى تفكيرى .

ـ كيف ؟

ـ ألم تفكر لحظة فى نفسك ؟ .. إنك معجزة أعظم من كل المعجزات ...أنت أيها الإنسان الذى لايؤمن بغير الإنسان . إن نفسك هى المعجزة الكبرى ولم تستطع الوصول إلى أصلها .. ما سر الروح فيك ؟ .. عرف العلماء الجسم كيف يحيا ، وعرفوا كهوف النفس وأغوارها ، وأطلقوا الصواريخ وملأوا الدنيا علوما ، ولكنهم لم يعرفوا سر الروح . سل هؤلاء العلماء الذين تؤمن بهم أن يخلقوا جناح ذبابة ... ضعف الطالب والمطلوب .

ـ ماذا تقولين ؟ .. نحن أبناء الطبيعة .

ـ ها أنت عاجز أيها الإنسان المفكر . وعجزت أن تعرف سرنفسك فنسبت نفسك إلى الطبيعة إباء منك أن تنسب نفسك إلى خلق الله ... ما الفارق إذن ؟

ألا إنكم تحاولون أن تخلقوا شيئا تضعونه موضع هذا السر الأعظم الذى استغلق عليكم وسيظل مستغلقا ...

ـ لو أن العلماء شاءوا لعرفوا سر الروح .

ـ لو أنهم شاءوا ؟ .. مالهم لايشاءون ؟ .. وهل هناك أهم عند هؤلاء العلماء من أنفسهم ؟ .. ألا يريدون أن يعيشوا فلا يموتوا ؟ .. ألايريدون أن يعرفوا ماهم ؟ ماهذه

الحياة التى تدب فيهم على رغم أنوفهم وتستلب منهم على رغم أنوفهم ؟ .. أيريدون أن يتحكموا فى الذرة والصاروخ ولايريدون أن يتعرفوا أنفسهم وهى أنفسهم ، وحياتهم وهى حياتهم ؟

ـ ماقلت إلا الحديث المعاد .. إى نفع لهذه الصلاة وهذا الإيمان بما لم نر فى عصر سيطرت فيه الآلة ... الآلة التى صنعها الإنسان .

ـ أى نفع للصلاة ! ؟ ... إنها الملجأ... إنها الملاذ ... إن إحساسنا أن هناك قوة عليا تحمينا وتشرف علينا يملؤنا إيمانا بها وطمأنينة ... ولن يحتاج الإنسان إلى شىء فى الحياة قدر حاجته إلى الهدوء والطمأنينة .

ـ ضعف ... لو آمنت بنفسك وبقوتك أنت الإنسان لما احتجت إلى هذا الذى تقولين .

ـ إن شعورنا بالسماء هو الذى يمدنا بالقوة فى الأرض .

ـ أنا لا أعرف السماء وأحس نفسى قويا ماردا أفعل ما أريد .

ـ ألا تفكر فى الموت ؟

ـ فناء .

ـ ألا تجد أن تصوره حياة ثانية أجمل وأمتع .

ـ كلام فارغ .. أى حياة ثانية ؟ وماذا أريد منها ؟ .. ألاتكفينى حياتى هذه ؟ .. لقد خلقت الذرة والصواريخ فى هذه الحياة بلا حاجة إلى الحياة الثانية . نحن فى عصر يأبى هذه الخزعبلات .

ـ لكم أخشى عليك يوما تحتاج فيه إلى هذه الخزعبلات .

ـ لاتخشى ، لن يأتى هذا اليوم .

ـ إذن لافائدة .

ـ لافائدة فى ماذا ؟

ـ كنت أطمع أن أجعلك تعتذر إلى الشيخ سلطان .

ـ لاتخافى ... أنا محتاج لوقتى فى المذاكرة وهو لا يرانى والأمور تسير .

ـ هل أنت واثق أنها تسير ؟

ـ لابد أن تسير .

وقالت ليلى وهى تنادى :

ـ لطفى .

ورد لطفى من البهو :

ـ نعم .

ـ هيابنا .

وقال لطفى فى سرور :

ـ هيا ..

ـ ١٠ ـ

لم يكن حديث لطفى إلى وهيبة قد انتهى ، فقد أضاع لطفى وقتا طويلا ليستطيع أن يبدأ حديثا ... أى حديث ... فقد كان قلبه واجفا يريد أن يقول شيئا ولايستطيع أن يقوله ... فهو يبحث عما كان يريد أن يقوله فيجده قد راغ منه فى طوايا نفس كثيرة التلاقيف اضطرم هادئها فهى موج لا قرار له من الاضطراب والاقدام والخوف والحب والخجل .

وحين استطاع لطفى أن يجد شيئا يتحدث عنه مالبث أن تبين أنه يلقى بحديث لاقيمة له ، وإنه لو ظل على هذا الحديث الذى أخذ فيه ما بلغ إلى شىء ممايريد ... كان يتحدث عن المدرسة وعن تقدمه فى الدروس ، ولكن سرعان ماسكت ... ثم عاد يبحث مرة أخرى عن طريق يؤدى به إلى ماتهفو إليه نفسه ... ولكن وهيبة لم تسكت !

ـ قل لى بالمناسبة يالطفى ... ماذا جرى لك ؟

ـ ماذا ؟

ـ تخبرنى خالتى أنك أصبحت من الأوائل ، وأنك أصبحت تذاكر ليل نهار.

ـ وماالعجب فى هذا ؟

ـ والكرة ؟

ـ ما شأنها ؟

ـ هل تركت اللعب ؟

ـ أصبحت أتفرج عليها .

ـ ولماذا هذا التغيير ؟

ـ أريد أن أنجح ...أريد أن آخذ الشهادة .

ـ أنت لا تعرف يا لطفى كم أنا سعيدة بما سمعت منك .

ـ أنت لا تعرفين السبب الذى يجعلنى أحاول جهدى أن آخذ الليسانس .

ـ وهل هناك سبب أقوى من الليسانس نفسه ؟

ـ نعم ... هناك سبب مهم جدا .

ـ ماهو ؟

ـ ألا تعرفينه ؟

وابتسمت وهيبة وتجاهلت وأغضت عن خفر غير متجاهل،

واستأنف لطفى :

ـ أهم شيء أسعى إليه ليس هو الشهادة .

ـ إنك لا تزال فى الثانوى .

ـ أعلم ، ولكنى سأجتاح السنين ... سآكلها أكلا ... فى غمضة عين سأصبح فى الجامعة ، وفى صحوة عين أكون قد خرجت من الجامعة .

ـ إن شاء الله .

ـ كل شيء بأمره ... وسأذاكر ... وأذاكر ... ولاأفعل شيئا إلا أن أذاكر ... ولكنى فقط ،أريد أن تعرفى لماذا أذاكر .

ـ لطفى ؟

ـ وهيبة أنا لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلت ... وهيبة هل فهمتنى ؟

ـ لاأعرف .

ـ بل يجب أن تعرفى ، ويجب أن أعرف أنك قد عرفت .

ـ لطفى أنت تعرف أننى ... أننى ...

ـ أنك ... ؟

ـ لطفى ارجوك .

ـ أرجوك أنت .

ـ أنت تعرف أننى ..

ـ أنك ماذا ؟

ـ لطفى لاأستطيع أن أتكلم ...

ـ هل عرفت لماذا أذاكر ؟

ـ يالطفى يالطفى ... أنت تعرف حياءنا ... لاأستطيع أن أتكلم ...

ـ أنا لايهمنى إلا أنت .

ـ وأنا لا أملك فى نفسى شيئا ...

ـ تقصدين عم الشيخ سلطان ؟

ـ نعم .

ـ المهم أن أعرف رأيك أنت... أنت أولا ، ولاعليك بعد ذلك .

صمتت وهيبة وعادت إلى الإغضاء . فقال لطفى :

ـ ألا تقولين شيئا ؟

ـ أنت تعرف ... أنت تعرف .

ـ أنا لاأعرف شيئا ... هذه أول مرة أكلمك فيها عما فى نفسى ... قولى .

ـ ماذا أقول ؟

ـ وهيبة ...

ـ لطفى .

ـ وهيبة ... هل لى عندك مثل ما لك عندى ؟

ـ نعم .

قالتها وهيبة خائفة ، ثم قامت ، ثم قامت عنه فى سرعة خجلانة لاتريد أن تراه بعدها ، ولكنه قال قبل أن تغادر البهو :

ـ وهيبة تعالى .

وجدت نفسها تعود إلى مجلسهامطرقة ، وقال لطفى :

ـ المسألة تحتاج منك إلى شىء آخر .

وقالت وهيبة وهى مطرقة ماتزال :

ـ ماذا ...ماذا يالطفى ... ألايكفى هذا ؟

ـ لا ... لايكفى أبدا ... بل إن عليك واجبات مهمة جدا .

ورفعت وهيبة إليه رأسها فى دهشة وسألته :

ـ واجبات ؟

ـ نعم ...فأنت الآن كبيرة ... وقد ... وقد ..

ـ ماذا ؟

وحينئذ جاء النداء من ليلى فلم يستطع إلا أن يهمس :

ـ سأكلمك ثانية فيما يجب عليك .

ـ هيا ندخل لهما ...

وقبل أن يدخلا كانت ليلى قد خرجت وصحبت أخاها إلى الخارج .

ـ ١١ ـ

أحست إيفون أنها غريبة فى بيت أبيها ، كان حنانه وعطف أمها المشوب بالشدة ، كما هما لم يتغير منهما شىء ، ولكنها مع ذلك كانت تحس أنها غريبة ... كان هذا الشعور يطالعها من داخلها هى ليس لشىء مما يعاملها به أبوها أو أمها أى صلة به ... إنها غريبة ... أفكارها لاتنسجم وحياتها اليومية ، آمالها بعيدة غاية البعد عن الآمال التى يرسمها لها أبوها أو تحلم بها أمها ... غريبة هى فى بيتها لاتدرى لماذا ؟ أهو هذا الذى حدث بينها وبين عباس ؟ ولكنه السر الذى لم يعرفه أحد .

ولكنى أنا أعرفه ... أعرفه ...وما الجديد فيه ؟ ألم يكن العهد بيننا على الزواج ، وقد تم الزواج ؟ .. أهو قد تم ؟ لا ... لا ... لم يتم ... فأين زوجى إذن إن كان الزواج قد تم ؟ .. أين عباس ؟ ... هناك فى بيته .

كانت تحس أن هذا السر الذى تخفيه هو الذى يجعلها غريبة ...شتى من المشاعر ، وألوان من المخاوف ، ونيران من الحسرة تراوحها نسمات من الطمأنينة . تذكرمستقبلها إذا خذلها عباس فتراه أسود داكنا تطل منه المخاوف ويملؤه الرعب ، ثم تذكر وجه عباس الصافى الأمين فتنفى عن قلبها الخوف ولاتذكر غير السعادة ... أيقبل أبوها وأمها ؟ ومالها هى ؟ ..إنها ستتزوجه قبلا هذا أم لم يقبلاه .

فما مصيرها إذا هولم يرد الزواج بها ؟ وتنهدم الآمال وتطل عليها المخاوف مرة أخرى فلا تجد وسيلة إلا أن تذكر وجه عباس الصافى الأمين ، فتعود إليها الطمأنينة وانية كأنها طيف حذر يتلفت قبل أن يقدم يستوثق دون خطاه .

وقد ترى أمها ما يلم بابنتها من قلق ، ويداخلها مايداخل أما تحب ابنتها فتسألها :

ـ مالك ؟

وتنظر إليها إيفون مليا ثم تقول :

ـ مالى ؟

ـ ألاتعرفين ؟ .. تفكرين وتطيلين التفكير ، وتسكتين فتمر بك الساعات لاتنطقين .

ـ ياسلام ياماما ... إنما يتهيأ لك ...لاشيء بى .

وتسكت الأم ، وقد تطمئن نفسها أن إيفون أصبحت في السن التى تجوز لها فيها أن تفكر وتسكت ، ويصيب هذا النوع من التفكير مكانا في قلب الأم يجب أن يطمئن فيطمئن.

كان اليوم جمعة وكانت إيفون جالسة إلى أمها في البهو تنتظران قدوم مرقص أفندى ، وكانتا تعلمان أنه قادم مع الأذان بصلاة الجمعة فقد كان أصدقاء القهوة يتركونه في هذا الموعد . وجاء مرقص أفندى وحياهما ورأت مريم في وجه زوجها هذا الأسى الذى تعرفه فيه إذا صادف خارج البيت مالا يرضيه . وعلى عادتها أخذت في حديث وعلى عادتها صمتت . وتنهد مرقص أفندى وساد الصمت قليلا ، ثم قال مرقص :

ـ مسكين أبو الأولاد .

ـ خير يامرقص ؟

ـ الشيخ سلطان ... الرجل الطيب على خلاف مع ابنه عباس .

ـ خلاف ؟ أى خلاف يمكن أن ينشأ بين أب وابنه ؟ فليضربه فينتهى الخلاف .

ـ لم يفد هذا العلاج في هذه المرة .

ـ كيف ؟ .. أنا أعرف الشيخ سلطان رجل شديد فى بيته وكلهم يرهبونه .

ـ المسألة ليست مسألة إرهاب، عباس ـ طبعا ـ لم يقل لأبيه كلمة جافية ،ولكن يبدو أن الخلاف أعمق من هذا .

ـ وماالخلاف ؟

ـ أنا ذاهب إليه بعد الظهر فى القهوة وسأرى ..

كانت إيفون صامتة لم تتكلم ، فهى قد علمت من عباس أن هناك خلافا ولكنه لم يبين لها عن أسبابه . وقد كانت تنتظر أن تعرف من عباس فى زيارته القادمة مالم تعرفه ، ولكنها مع ذلك أبت أن تسكت فهى تقول لأبيها :

ـ لماذا لاتحاول أن تصلح مابينهما ؟

وقالت مريم :

ـ ونحن ما شأننا يا إيفون ؟ .. لنكن نحن فى حالنا .

قال مرقص أفندى :

ـ كيف تقولين هذا يامريم ؟ .. الشيخ سلطان صديق العمر ... طبعا سأفعل كل ما أستطيع أن أفعله .

وقالت إيفون فى فرح :

ربنا يبقيك يا بابا .

ـ يا بنتي ربنا يحفظك ويبعد عنا السوء ... يا إيفون يابنتى إن أعظم مصيبة يلاقيها الإنسان فى حياته هى المصيبة التى تناله فى أولاده ...

وغامت عينا إيفون بالدمع وأوشكت أن تجهش لولا أنها قامت مسرعة إلى حجرتها ... وتعلقت عينا أبيها بها حتى اختفت عن ناظريه ،، ثم استرد هو الآخر دموعا أطلت نغاضت بين حب لابنته وإشفاق عليها مما أثاره فى نفسها بحديثه .

وحين ألقت إيفون بنفسها إلى السرير وأصبحت وحيدة لاأحد حولها . أطلقت الإجهاشة المكبوتة وهى تتساءل :

ـ ماذا هو فاعل حين يعلم ؟ . ماذا هو فاعل حين يعلم ؟

* * *

وحين أتم الشيخ سلطان حديثه إلى مرقص أفندى قال :

ـ استكبرت يامرقص أفندى أن أشكو همى لرضوان ، وهو عديلى وزوج خالته ... لم أرد أن يعلم أحد أن ابنى يعصى أمرى ... ولكن المصيبة أكبر من أن أخفيها فى نفسى ...لم أجد بين أصدقائى من أروى له إلا أنت ... .. ماذا أقول

يامرقص ؟ .. ماذا أقول لهم ؟ .. أأقول إن ابنى ... ابنى أنا مفتش الوعظ والإرشاد ملحد ؟ .. كيف سينظر إلى زملائى ؟ كيف أريهم وجهى ؟ .. أيبلغ بى الفشل فى عملى إلى درجة أنى لا أستطيع أن أجعل ... ابنى ... ابنى الوحيد مؤمنا ؟ .. يجب أن أستقيل ... وإذا استقلت ماذا نأكل وكيف نعيش ؟ .. بل كيف يعيش حضرة الملحد الذى يضمه بيتى ؟ .. لارأيتها أبدا يامرقص افندى لا رأيتها أبدا .

وصمت مرقص افندى قليلا ورفع رأسه من إطراقها ثم قال :

ـ هون عليك ياشيخ سلطان .

ـ أمثل هذا الخطب يهون ؟

ـ قل لى ... ألاتحس أنك قد أديت واجبك نحوه ؟

ـ وما فائدة أننى أديت واجبى إذا كان لم يثمر ؟

ـ المفروض ياشيخ سلطان أننا نؤدى واجبنا نحو أولادنا ، وحين يبلغون من السن مابلغه عباس يصبحون هم مسئولين عن أنفسهم أمام الله والناس ... هل قصرت فى شىء ؟

ـ وهل أدرى ؟

ـ كل إنسان يؤدى واجبه بالطريقة التى يعتقد أنها

صحيحة ... فهل أنت مقتنع أنك أديت واجبك بالطريقة التى يرضاها ضميرك ؟

ـ كان ضميرى مستريحا ... أما الآن ...فلا أدرى .

ـ لا أحد يدرى إلا أنت ... وإذا كنت مقتنعا أنك أديت واجبك فالنتائج ليست بيدك أنت .

ـ إنه يرفض أن يصلى يامرقص .

ـ عدم الصلاة لايدل على الإلحاد ياشيخ سلطان ... كثير منا لايذهبون إلى الكنيسة ولكنهم مؤمنون .

ـ قال لى إنه غير مقتنع .

ـ اسمع ياشيخ سلطان ... أنا أعتقد أن أى ضغط فى هذه الناحية سيؤدى إلى عكس النتيجة التى تريدها ... اترك صلته بربه له هو يصنع فيها ما يشاء ، وأكمل أنت واجبك.

ـ أيظل فى بيتى يأكل من شقائى ونظل متخاصمين ؟

ـ أبدا ياشيخ سلطان ... سأناديه أنا وأجعله يقبل يدك ويعتذر إليك .

ـ والصلاة ؟

ـ دع هذه لله يحاسبه عليها ياشيخ سلطان .

ـ افعل ماتراه يامرقص فأنا واثق من حسن تصرفك . وليست هذه أول مرة ألجأ إليك فيها لتحل مشكلاتى ، إن كانت هذه هى أعظم مصيبة واجهتها .

ـ كل شىء يهون ياشيخ سلطان ... كل شىء يهون .

ـ ١٢ ـ

كانت إيفون تنتظر عباس مشوقة إليه تحمل فى نفسها كلاما كثيرا تريد أن تقوله له ، ولم يطل بها الانتظار فقد جاء عباس فى موعده المحدد ، وما أن أغلق الباب من خلفه حتى احتواها فى أحضانه وراح يقبلها فى نهم . ولكن إيفون قطعت عليه قبلاته قائلة :

ـ عباس ...انتظر ...أريد أن أكلمك .

وتوقف عباس ونظر إليها ... ثم جلس إلى السرير وجلست هى على المقعد وقالت :

ـ أليس هناك شيء تريد أن تقوله لى ؟

ودهش عباس من السؤال وقال :

ـ مثل ماذا ؟

ـ لاأدرى ... فإننا كنا نتكلم ... نتكلم كثيرا ... ولكننا منذ ... منذ ... منذ جئتنى على غير موعد ... أتذكر تلك

الليلة ؟

وأومأ عباس برأسه أن نعم ، فاستأنفت إيفون الحديث :

ـ منذ تلك الليلة لم نتكلم ... أصبحت كأنك تجيء لغرض واحد تناله ثم تنصرف .

وصمت عباس واستأنفت إيفون :

ـ اختلفت مع أبيك فلم تقل لى عن سبب خلافك .

وقال عباس دون أن يبين في حديثه ما يعتمل بنفسه من ضيق :

ـ وماذا أقول ؟ .. وعلى كل حال هذه مسألة قديمة وقد استطاع أبوك أن ينهيها على خير .

ـ نعم ... استطاع أن يجعلك ترى أباك فقط، ولكنه يعرف كما تعرف أنت أن أباك ما زال غاضبا عليك .

ـ على كل حال هذه مسألة انتهت من زمان .

ـ كنت أرجو أن أكون أنا موضع سرك وأعرف كل مايدور في نفسك .

ـ لم أكن أدرى أنك تريدين أن تعرفى .

ـ ماذا تظن بى ؟.. ماذا أنا عندك ؟

ـ ومايهمك من هذا ؟

وحملقت فيه إيفون حائرة غاضبة خائفة :

ـ ألاتدرى ماذا يهمنى ؟

وأطرق عباس لحظة ثم قال :

ـ لم أقصد مايغضبك ، وإنما نجتمع لوقت محدود وأعتقد أن الفرصة لاتسنح لمثل هذا الحديث .

ـ عباس ... أتحبنى ؟

ـ أتشكين فى هذا ؟

ـ نعم .

ـ فأنت مجنونة .

ـ أرجو أن أكون واهمة فى هذا الشك .

ـ أنت واهمة طبعا .

ـ أتنوى أن تتزوجنى ؟

ـ ألم نتكلم فى هذا من قبل ؟

ـ أجب على سؤالى يا عباس .

ـ أنت تعرفين جوابى ... طبعا سنتزوج .

ـ عباس ! لاأحس روحك فى ألفاظك .

ـ ألا تصدقيننى ؟

ـ أرجو أن أصدقك .

ـ أليست أمامنا سنوات طوال للبحث فى هذا الأمر ؟

ـ سنوات ... هل نسيت ... لم يعد أمامك إلا سنة واحدة وتتخرج .

ـ وهل السنة شيء قليل ؟

ـ ليست السنة شيئا قليلا ؟ ولكنننى أخاف بعد السنة ... أخاف ...

ـ ما الذى بث هذا الخوف فى نفسك ؟

ـ ما صرت إليه .

ـ فقط ؟ !

ـ ومنى !

ـ ابنة عمك .

ـ نعم .

ـ ولماذا تخيفك ؟

ـ إنها معذورة ... تعرف أننى أحبك وترى العقبات التى تقف بيننا ، وتخشى إذا تخليت عنى ...

واغرورقت عينا إيفون بالدموع فقال عباس :

ـ كنت أنتظر منها أن تشجعك لاأن تخيفك .

ـ كيف ؟.. إنها واقعية ... ترى الحقائق المجردة .

ـ هل عرفت الحب ؟

ـ إنها تحب زوجها .

ـ وهل مازالت تحبه ؟

وامتقع وجه إيفون وقالت وقد جف ريقها من الخوف :

ـ وهل المفروض ألاتحبه بعد الزواج ؟

ـ لا ... لم أقصد ... ولكنى أعتقد أن الحب يقل بعد الزواج .

ـ لماذا ... لماذا ؟

ـ أعتقد أن النار تبرد بعض الشىء .

ـ إذن ... فقد بردت نارك .

ـ وهل تزوجنا ؟

ـ عباس حديثك يخيفنى .

ـ ماذا يخيفك ؟ .. ماذا بك ؟

ـ يخيل إلى أنك نلت منى كل ماتريد .

ـ إيفون كفى عن هذا الحديث .

ـ لأنه الحق .

ـ إيفون أرجوك .

ـ أهو الحق ؟

ـ تريدين أن تثيرى شجارا ... حسنا ... فأنا منصرف .

ـ منصرف ؟ بهذه السهولة ؟

ـ ماذا أصنع معك ؟

ـ أنت المسئول وحدك عما صرت إليه ... ولابد أن تتحمل المسئولية .

ـ إيفون الوقت لم يحن ...

وقبل أن يكمل عباس الجملة فتح باب الحجرة فجأة وبدا مرقص أفندى فى جلبابه . وشمل الحجرة صمت ملىء بالضجيج. بالثورة ، بالخجل ، بالرعب ، بالأسى . لحظة مرت تجسم فيها الشقاء والعار والامتهان ، صمت مرقص وظل ناظرا، وطال صمت وطال حتى خيل للآخرين المطرقين فى الأرض أن الصمت لن ينتهى . أحس عباس لأول مرة فى حياته أن عقله لم يعد يفكر ...كل ماكان فيه لحظة ذاك أنه لم يعد يفكر . وأحست إيفون أنها لا تريد شيئا فى لحظتها تلك إلا أن تسمع صوت أبيها ... تريد أن تسمعه يقول أى شىء ، ولاتدرى لماذا أحست أنه لوتحدث ستستطيع أن تقول شيئا يرضيه . ثم أحست ـ ولاتدرى لماذا ـ أنها لو ألقت بنفسها بين ذراعيه ستستطيع أن تنال منه قبلة ... كأنما كانت تحس أن حضن

أبيها لن يخذلها ، ولكن هذا الصمت المليء بالضوضاء لايريد أن ينقطع وأبوها لا يريد أن يتكلم ... لايريد أن يقول شيئا ... أى شيء .

وأخيرا انقطع الصمت ولكن لم يكن الأب هو من قطعه وإنما عباس :

ـ ياعم مرقص أفندى .

وكان مرقص أفندى قد تمالك نفسه فقاطع عباس فى حزم :

ـ اخرس .

وقال عباس :

ـ المسألة ...

وقال مرقص :

ـ اخرس قلت لك ... وامش ... انزل .

وقالت إيفون :

ـ يا بابا ..

قال مرقص :

ـ لاتنطقى هذا الاسم مرة أخرى .

وقالت إيفون :

ـ إنه سيتزوجنى .

وقال مرقص أفندى :

ـ انزل ياعباس ... ولاترنى وجهك أبدا .

وقالت إيفون فى تشبث :

ـ إنه يريد أن يتزوجنى ... قل له ذلك ... قله ياعباس .

ومشى عباس إلى باب السلم وفتحه وانزلق منه إلى الخارج صامتا لايلوى على الحريق الذى أشعله فى بيت كان آمنا .

ـ ١٣ ـ

حتى البيت يأبى على مرقص الطمأنينة والهدوء . بل إن البيت أصبح شر ما يواجهه فى الحياة. لقد استطاع الشر الذى يتوقاه خارج البيت أن يتسلل إلى داخل أبوابه ويصرع أمله الوحيد الذى يحيا به وله . كيف استطاع هذا الشر أن ينفذ إلى بيته وهو حريص أشد الحرص أن يغلق الأبواب ويحكم الرتاج ؟ وكيف استطاع أن يختار من البيت أعز من فى البيت؟ التى ما أحاطت به الهموم وذكرها إلا هدأ ثائره وقر مضطربه ؟ . فقد أصبحت هى اليوم ثائره وهى هى من أصبحت مضطربه بل ومقتله ... كيف يقوى على هذه المصيبة؟ ..

كان جالسا بالبهو على الأريكة حين طلعت إليه مريم من حجرتها و رأته ورأت باب ابنتها مفتوحا . وسألت مرقص فرفع عينا شاخت فكأنما سعى بها العمر عشرات من السنين ثم أطرق

مرة أخرى .. لا ليس هذا مرقص ... ودخلت إلى ابنتها فوجدتها متكومة كقطعة من الملابس فوق السرير وقد اعتمدت رأسها على ركبتيها . وسألتها ...فرفعت إليها عينين تحجرت فيهما الدموع ... فصرخت :

ـ انطقى .

وقال مرقص من البهو فى صوت متهدج حاسم :

ـ لايعلو صوتك .

وقالت فى إصرار :

ـ ماذا بكما ؟

ثم ذهبت إلى زوجها وجلست إلى جانبه مبهورة الأنفاس والهة :

ـ ماذا يامرقص ؟ ..ماذا حل بنا ؟

ودون أن يرفع إليها بصره تمتم بكلمتين كانتا كافيتين غاية الكفاية . وهمت أن تقوم إلى ابنتها فأمسك زوجها بذراعها فى قوة عنيفة :

ـ لن يعرف أحد ماحصل ... حذار أن يعلو صوتك .

وتخلصت مريم من يده وقامت إلى إيفون :

ـ ماذا بينكما ؟

وصمتت إيفون .فقالت الأم فى بهرها الآخذ يكاد الخوف يعقد لسانها :

ـ هل أنت عذراء .

وحينئذ اندفعت إيفون فى نشيج مجنون وأرادت أن تلقى بنفسها إلى حضن أمها ولكن أمها ـ وقد فهمت ـ ألقت بها إلى مكانها لتصبح مرة أخرى قطعة من الملابس المهملة ملقاة فى السرير .

* * *

لم ينم ثلاثتهم ولم يتحدث أحد منهم إلى أحد . وطلع الصبح فما أحسوا بمطلعه ، وألقيت الجريدة وجاء اللبن ولكن أحدا لم يستقبل الجريدة أو اللبن . وجاء موعد الديوان فماخف له مرقص أفندى ولاحتى أحس به ، وظلوا ثلاثتهم فى أماكنهم الضجيج فى رأس كل منهم يقطع مابينه وبين الآخرين . وكانت مريم أسبقهم إلى الإفاقة قالت لمرقص :

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

وقال مرقص :

ـ ناديها .

وحين جاءت إيفون وجلست إزاء أبيها قال :

ـ ماذا تريدين أن تفعلى ؟

ـ سيتزوجنى .

ودقت مريم صدرها في غيظ وقالت :

ـ ماذا ؟

وقال مرقص فى هدوء عاصف :

ـ أتدرين ماتقولين ؟

ـ نعم .

ـ واختلاف الدين .

ـ ديننا دين المحبة .

ـ هذا زواج لا تقره الكنيسة ... فهو زنا ... كفر .

ـ المسيح يقول : «إنى أريد رحمة لاذبيحة » .

ـ لو تزوجته فقد خرجت من ديننا .. دين المسيح .

وقالت أمها :

ـ اقتلها قبل أن تتزوجه .

وقال مرقص أفندى فى حزم :

ـ لايراك بعد اليوم ولاترينه .

وحاولت إيفون أن تقول :

ـ ولكن يا أبى ...

ـ لامناقشة ... قومى ... اذهبى إلى حجرتك ...ولا تريني وجهك .

ثم التفت إلى مريم وقال لها :

ـ اجمعى ملابسنا ... سنترك هذا البيت ... سنترك هذا الحى جميعه .

ـ ١٤ ـ

خرج عباس إلى الطريق مطرقا خزيان ... ينتابه شعور لم يعهده قبل ... كان يتمنى أن يكون أبوه راضيا عنه فى لحظته ليستطيع أن يجلس إليه دون أن يكلمه ...كان يريد قلبا حانيا يلجأ إيه ... أى قلب ... كان مناه جميعا أن يرى إنسانا ويحادثه ... أى حديث .لأول مرة يجابه الحياة وحده . كان يردد فى نفسه أنه لابد أن يكفر عن خطئه ولابد أن يتحمل المسئولية . مسئولية تحرره ... تحرره ؟

مالحريتى ولهذا الذى أنا فيه ؟ .. إنها هى الذى أنا فيه ... قد فعلت ما فعلت يوم تحررت من سلطان أبى وأعلنت تحررى من الدين ؟ .. مالى ولهذا ؟ .. لقد صنعت بحريتى ماأردت أن أصنع وأنا كفيل أن أصلح مافعلت وأتحمل مسئوليتى ... سأتزوجها أتزوجها ... نعم ... أتزوجها ، إن أباها اليوم ثائر ولكنه بعد أيام سيهدأ . وسأذهب أنا إلى أبى

أطلب إليه الزواج منها . أتراه يقبل ؟ فإذا رفض ؟ .. أعمل وأتزوج ...والكلية ؟ ولماذا لا أعمل وأذاكر فى وقت معا ؟ .. نعم ... أعمل وأذاكر وأتزوج فى وقت واحد ... هل أنا أول من فعل ذلك ؟ ولن أكون آخرهم ... ولكنها كلية الهندسة ... وقد أوشكت على النهاية . وماذا يهم ؟ .. فى سبيل ... فى سبيل ماذا ؟ هل أحب إيفون ؟ لاأدرى ... نعم أحبها ... حبا يكفى للحياة القادمة كلها ... حبا لا يزول باللحظة النشوى ...حبا لايختلف بعد اللقاء عنه قبل اللقاء ... حبا يجمع القلب والجسد فى بوتقة واحدة فهما مزيج مؤتلف مشع قاهرعاصف بكل العراقيل ... أحبها هذا الحب ؟ . لابد أن أتحمل مسئولية ماصنعت ... أريد أن أحادث إنسانا ... فإذا رفض أبى ؟ فإذا رفض أبوها ؟ .. أكون قد أديت واجبى ... أأكون قد أديت واجبى ؟ .. لماذا أفكر فى أبيها وأبى ولاأفكر فيها هى ؟ هى التى نفيتها عن عالم الطهر وهى التى وثقت فىّ ؟ ولكنها هى من أسلمتنى نفسها ...هى شريكتى ... ألم أعدها بالزواج ؟ .. كان عليها أن تحذر ... إنه مستقبلها ... لقد ذكرت وقوفى أمام بيتها واحتيالى لأركب العربة وفرحتى باللقاء ، وسنة ونصف من اللقاء العفيف فاطمأنت ... ما كان لها أن

تطمئن . أريد أن أحادث أحدا ... هل أنا سعيد بحريتى الآن؟ ... هل أناحر ؟ لا ، ألا تستعبدنى هذه الأفكار ؟؟ ألا تفرض علىّ نفسها فرضا ؟ .. أأستطيع أن أتحرر من أفكارى؟ أأستطيع أن أفكر فى أى شىء آخر ؟ .. فيم أريد أن أفكر ؟ ..فى ليلى ... وكيف أفكر فى ليلى وأنا فى هذا الموقف الضنك ؟ . لعلى أفكر فيها لأنها الوحيدة بين كل الناس التى تهتم بأمرى، ألاتهتم إيفون ؟ .. أما كان فى وثوقها بى وإلقاء شرفها ومستقبلها بين يدى أكبر دليل على اهتمامها بى ؟ .. أجل ولكن . ماذا ؟ .. لم يكن لها أن تفعل . لماذا ؟ ! لماذا ؟! لأننا ... لأننا لم نكن زوجين ... إذن فأنت عبد ماتزال ... عبد ترسف فى أشد الأغلال عنفا وأقسى القيود جمودا ... ما الزواج :أيها الحر ؟ ..إنه مباركة الدين للعلاقة التى قامت بينك وبين إيفون... لاأقل ولاأكثر ... لا ... لابل انتظر ... إنه إعلان العلاقة ... إنه إشهارها على ملأ الناس ؟ ! الناس؟! عبد ،.. عبد ... ألم أقل لك إنك عبد سجين الدين والتقاليد معا لاتستطيع منهما فكاكا ... أين هى الحرية التى نلت ؟ أين هى الحرية التى زعمت أنك ملكتها لاتبيعها بالحياة!؟ ... عبد ... عبد ... وسادتك الدين والناس والتقاليد ...أنت غير

راض إذن عن العلاقة بينك وبين إيفون لأنكما لم تتزوجا ...لو كنتما تزوجتما ؟ .. إذن فلا جناح عليها ولاملامة ... ؟ ! ومن قال إننى غير راض عنها ؟ .. ها أنا ذا أريد أن أتزوجها ... أتحمل لها فى نفسك احترام المحب لحبيبته أو الزوج لزوجته؟ .. وإن لم فلماذا ؟ لأنكما لم تتزوجا ... أجل أحبها ... وسأتزوجها ... أريد أن ألقى إنسانا . أليس لى أصدقاء ؟ .. نعم لقد كنت أمارس حريتى حين التقيت بها ولكن أكانت هى أيضا تفكر هذا التفكير ؟ ألا أخشى إذا تزوجتها أن تخدعنى مع غيرى كما خدعت أباها وأمها معى ؟ كيف أطمئن إلى بيتى ومن فيه قد تزوجتنى قبل الزواج ؟ .. نعم قد وثقت بى ... وأحبتنى ... كيف تطمئن أنها لن تثق فى رجل آخر وتحبه ؟ .. يالها من أفكار ! كيف أطمئن إلى أى زوجة أخرى؟ .. فيم تختلف إيفون عن أى فتاة أخرى ؟ .. إنها سلمت نفسها لى بغير زواج ... أى بغير ورقة من المأذون الذى يمثل شرع الله ويمثل المجتمع والتقاليد وكل ماأحاول التحرر منه ... أحاول ؟ ! بل إنه يمثل كل ما تحررت منه فعلا ... أنا لا أومن بغير الإنسان ... الإنسان وحده ، وهو القوة العظمى فى الحياة ... وإيفون إنسان فعل ما يريد أن يفعل . وإنى أحبها لأنها

فعلت ماتريد أن تفعل ... هل أحبها ؟ لابد لى من صديق أكلمه فى غير هذا الحديث ...شعبان ... شعبان أين شعبان الآن ؟ .. مالى ولشعبان الخيالى الحالم ؟ وهل أريد الآن إلا خياليا حالما ؟ .. لابد أنه فى البار ... نعم يسكر ويصلى مسرورا فى الصباح بالصلاة وفى المساء بالخمر ... يقول إن الخمر بشعشع الروح ... مالى والخمر ؟ .. إنى اريد شعبان ... هو فى ذلك البار الضيق الصغير بشارع عماد الدين ، هناك أجده خلف الحاجز الذى يستخفى وراءه الشاربون عن عيون الناس . مم يستخفون؟ إن الدين جعل الشعور بالإثم يلازم النفوس لايتركها ... كم هم مجانين هؤلاء الناس . لماذ لايشربون ما داموا يريدون أن يشربوا ؟ .. أفسد الدين حياتهم ... أسعيد أنا بغير الدين ؟ نعم سعيد ... عدنا إلى إيفون . ماذا يهم مادمت سأصلح خطئى . وما شأن الدين بهذا؟.. إن حريتى ملكى وأنا وحدى من أتحمل مسئوليتها وسأتحملها . على أية حال سأتزوج من إيفون .

وكان قد ركب السيارة الكهربائية التى تؤدى به إلى صديقه ، ونظر إلى الساعة .

قيد آخر ... هذا الزمن قد لا يمكن الفكاك منه شأنه شأن

الطعام وإيفون ... عدنا إلى إيفون ... لن أفكر فيها ، لن أفكر مطلقا حتى أصل إلى شعبان ...السيارة حافلة بالناس ... ما هذا الزحام ؟ .. ولكن مالى لا أضيق بالناس أو بزحامهم اليوم؟ .. أليسو هؤلاء هم المجتمع والتقاليد ؟ .. مالى لا أضيق بهم الآن ؟ .. بل ها أنذا أبحث بينهم عن صديق ... أما لى بين هؤلاء جميعا صديق ؟ .. مساكين الناس ! التعب باد عليهم . كل فرد منهم قطعة من الإجهاد تسعى حياتها فى رهق . تدفعهم الحياة فيندفعون وتلهب ظهورهم بالسياط فيجهدون ... منهم من لاحياة له إلا إذا عمل، ومنهم من لا حياة لأولاده إلا إذا اجتهد ... أيلقون من حياتهم كفء مايدفعون لها من جهد ؟ أو يلقون من أولادهم عدل مايبذلون فى سبيلهم من شقاء ؟ .. بل مساكين ... ها هو ذا مرقص أفندى لم ير شقاء أشد من شقائه بابنته الليلة ... أنا من صنعت هذا الشقاء ... ذنب هؤلاء الناس ... ما ذنب الناس ؟ .. إنى أنا وحدى الذنب ... قلنا سأصلح خطئى ... سأتزوجها ... هذا الرجل الواقف مكدود متبرم ، مسكين ترى أى مصيبة يعانيها ؟ .. أأترك له مكانى ؟ لن يصدق ، سيحسبنى أسخر منه ... لماذا يتقبل الناس الخير فى

حذر ... لأن الشر من طباعهم .. مسكين مرقص أفندى يبدو أن الشر طبعى أنا وحدى ... ما لهذه السيارة بطيئة ؟ .. ألا يأتى شارع عماد الدين أبدا .. أريد صديقا ... أترانى ألجأ إلى المجتمع ؟ .. مالى وللمجتمع ؟ .. فمالى أبحث عن صديقى ؟ .. أف من طول الطريق ... ما أطول الطويق ... ألايأتى شارع .. ؟ ها هو ذا أخيرا ...

ولم ينتظر أن تقف السيارة بل قفز منها إلى الطريق ، وكبا وكاد يقع ولكن اثنين من المارة أمسكا به وأوقفاه ، وسأله أحدهما فى إشفاق :

ـ هل حدث شىء ؟

وقال بلا وعى :

ـ لا شكرا ... بسيطة .

وقال الرجل :

ـ طيب مع السلامة... وعلى مهلك .

وقال وهو يمضى :

ـ شكرا

واندفع فى طريقه إلى البار الذى يجلس فيه صديقه ... وحين دلف عباس من الساتر المقام أمام باب البار أشرق وجهه

بالسرور ، فقد رأى شعبان جالسا هناك بين رفقة يؤلف هو بينهم على مزاجه ... جماعة ليس فيها اثنان يمثلان رأيا واحدا ولافكرة واحدة . لا انسجام بينهم فى الرأى ولاصلة لأحدهم بالآخر فى العمل . لكل منهم عمل يختلف كل الاختلاف عن الآخر ... شيئان يؤلفان بينهم هما شعبان والخمر ... وما كان شعبان ليستطيع أن يجمع هذا الشتيت من الناس إن لم يجعل الخمر إغراء ، فهو يقدم لهم كأسا هدية ويترك كؤوسهم الأخرى تتولاها جيوبهم ويشترط إزاء ذلك أن يشرب ليلتين فى الأسبوع على حسابهم مجتمعين . وكان يخسر فى سبيل ذلك جنيهين أو ثلاثة فى الشهر ولكنه كان يجعل من جلستهم عوضا له عن كل الملاهى الأخرى . فقد كانت أسباب الخلاف بينهم لاتنتهى ، ومن هذا الاختلاف كانت متعته ضحكا عاليا يرطب به صراع النقاش وصراع الدنيا معا ... ولكن خلافهم على اتساعه حين وصل إلى الخمر أصبح اتفاقا ...فهم يشربونها فى تلذذ ، ولو أتاحت مواردهم لهم مزيدا ماتركوها ليلهم أو نهارهم ...ولكم كانوا يقومون والأسف يملأ نفوسهم أنهم لم يصلوا إلى مرتبة السكر الكامل ، فيلعنون الفقر الذى يقف بهم دون أمانيهم . كانوا ثلاثة نفر رابعهم شعبان : فأما

شعبان فقد فرغ من كلية الحقوق منذ قريب فهو الآن محام وإن كان تحت التمرين ، وأما الأصدقاء فهم محمد حسن موظف بوزارة الشئون الاجتماعية ولكن الصفة التى يريدها أن تغلب عليه أنه شاعر ، وإلهام الزينى ويعمل مديرا لنادى الأخوة ، وسليم فوزى ويعمل كاتبا لدى سمسار فى بورصة الأوراق المالية ويقول إنه سمسار ...يجلس بينهم شعبان يغرى كلا منهم بالآخر ، فإذا أبوا ليلة أن يختلفوا تركهم وقام إلى بيته آسفا .
وكان عباس يعرف بهذه الخلافات التى يثيرها شعبان بين أصدقاء الليل ، وكان يعجب كيف يتاح لشعبان الذى لايراه أحد فى الصباح إلامطرقا خجلا يتمتم الألفاظ ولاينطقها ويهينم بالحديث لايقوله ... كيف يتاح له أن يصبح عند الليل هذا العربيد المشاكس الضاحك الصاخب ؟ بل كيف يشرب الخمر وهو لايترك فرضا من الصلاة إلا أداه ؟

سأله يوما :

ـ أتصلى وتشرب الخمر ؟

فقال باسما فى سخرية :

ـ كل بثوابه :

ـ ماثواب الخمر ؟

فيقول شعبان :

ـ الحرية ... أحس كأن لاصلة لى بخجلى هذا الذى تراه ، ولاصلة لى بالمكتب ولابالقضايا ، إنما هى نشوة تستخفنى وضحك سادرمتحرر ...ويلح عباس :

ـ ألا تجد فيما يسمح به الدين ماتنشده من الحرية ؟

فيحمر وجه شعبان ويقول :

ـ والله ما شربت الكأس الأولى إلا قلت اللهم إنه منكر لايرضيك .. ولكنى ياعباس أريد أن أضحك ولاأجد فى هذه الدنيا مايضحك ... أناأشترى الضحك بالمعصية ، وإنى أحاسب نفسى حسابا عسيرا ... لعلى إذا تزوجت ووجدت زوجتى وأطفالى من حولى ... لعلى أسعد بهم ولاأحتاج إلى الضحك.

وكان عباس يقول :

ـ إنك ضعيف ... تستعين بالخمر لتنال حريتك وهى فى يدك ... ما الذى يربطك بالمجتمع والتقاليد ؟ ... ما الذى يربطك بهذا الأسف الذى تحسه حين تشرب الخمر وأنت تسعد بشربها ؟ .. انطلق ... حطم الأغلال ، مزق القيود ،..وانطلق. اشرب لأنك تريد أن تشرب ، واسعد لأنك حر ولاتؤذى أحدا

. بحريتك .

وينظر إليه شعبان مليا ثم يقول :

ـ الكلام سهل .

ـ والعمل أسهل لو أنك حازم .

ويقول شعبان فى وعى :

ـ سأجرب فيك الحرية ... إذا نفعت ألحق بك .

كثيرا ما كان مثل هذا النقاش يدور بين الاثنين إذا اجتمعا فى الصباح وشعبان مفيق ... أما فى الليل فقلما يأتى عباس إليه ... فإذا جاء فإنه لا يناقشه هذا النقاش الطويل وإنمايكتفى بسؤال عابر أو لمحة من رأيه خاطفة ، ثم ينصرف إلى الخلاف الذى يكون مستعرا بين الأطراف الثلاثة .

حين أهل عباس على الجلسة فى ليلته تلك خالجت نفسه ومضة من هدوء ما لبثت أن زالت ... أأكون قد جئت اليوم لأنى مخذول بحريتى فشلت فى أن أواجه بها الحياة ؟ ..ثم سرعان مانفى عن ذهنه هذه الخاطرة ... قلنا سأتزوجها ...أى فشل إذن وأى خذلان ؟ .. وأقبل على الجلسة ... ورحب به الأصدقاء الخصوم فى إقبال سكارى . وندت عنه ابتسامة ذهلوا عنها فما أبصروها ... وقال شعبان فى مرح :

ـ المباراة الليلة فى أروع حالاتها ... لابد أن تشرب كأسا.

ودهش عباس قائلا :

ـ أشرب ؟ أنت تعرف أننى لا أشرب .

ـ نعم أعرف ولكن ما البأس أن تجرب ؟

ـ ولماذا أجرب ؟

ـ لتنال حريتك ... آه نسيت ... أنت عندك حريتك . ألا تريد حرية أخرى جديدة ؟ .. لابأس بكثرة الحريات فيما أعلم.

ـ أنت سكران .

ـ لا .. أنا منسجم ... من الشجار لامن الخمر ... الشجار حياة... وأنا أحب الحياة ... أتشرب كأسا .

وصمت عباس هنيهة ثم قال :

ـ أشرب .

وضحك شعبان :

ـ يبدو أن حريتك تريد أن تتركك .

وذعر عباس كأنما مسته جمرة ... أحس كأن شعبان قد لمس بجملته الهازلة مكمن الصراع فى نفسه ... وكمن يخاف

الحق قال فى غضب :

ـ هل جننت ؟

وضحك شعبان هازلا وقال :

ـ لاتخف ...الله ... أنت لاتريدنى أن أدعو لك فأنت لا تؤمن بالدعاء ... إذن فقل لى كيف أرجو لك الخير ؟ .. أسأل من إذا شئت أن أتمنى لك دوام الحرية ؟

وقال عباس :

ـ هل انتهى الخلاف بين إخواننا وأصبحت لاتجد غيرى ؟

وقال شعبان :

ـ لا .. لا .. أبدا .. يالمبو .. هات كأسا . اشرب وأسمع ولن أكلمك .. أنت حر ..

ودون وعى قال عباس :

ـ طبعا حر .

والتفت شعبان إلى إلهام الزينى وقال :

ـ هيه يا إلهام ... ألاتريد أن تدعو محمد حسن ليلقى شعره فى النادى ؟

ـ شعره ... أى شعر هذا ... مارأيت له عمرى قصيدة فى مجلة أوحتى قصيدة مطبوعة ولو فى نشره .

ويقول محمد حسن فى غضب :

ـ وأنت ما شأنك بالمجلات التى نشرت فيها ... ما الذى يوصلك أنت لقراء المجلات الأدبية الراقية ؟

ويدخل سليم فوزى فى الموضوع ويتحدث فى تؤدة وثقة بالنفس :

ـ أتعرف يامحمد ما هى مشكلتك ؟ .. إنها اسمك ... محمد حسن . كم مليونا لهم هذا الاسم ... اسم عادى جدا لايجذب الأنظار .

ويقول شعبان ضاحكا :

ـ فعلا ... لماذا لاتستعير اسم إلهام ؟ .. إن اسمه أقرب إلى الشاعرية .

ويقول محمد :

ـ لم يبق إلا السمسار ليتحدث فى الشعر أيضا .

ويقول سليم فى وقاره لايزال :

ـ ياأخى أنا أتحدث عن اسمك لاعن شعرك .

ويدورالنقاش ويدور عباس يتبع الكأس بأخرى وبثالثة ، وينصرف عن الحديث الصاخب ... وقد صعدت حميا الخمر إلى رأسه ... يتحدثون ... يتحدثون ويقضون أيامهم ولياليهم

يتحدثون لايبحثون فى الحرية ولا فى المجتمع ولا فى التقاليد ولا فى إيفون ... سأتزوجها ... سأتزوجها ... فمالى لاأفعل مثلهم ؟ أأرضى أن أكون مثلهم ؟ .. ما هذه الخمر ؟ مالى وكأنمايقف بينى وبين تفكيرى ستار لا أدرى كنهه ... مزيج من الشفافية والعتمة وألوان من الهروب لا أريدها ... وأريدها ... لقد استطاعوا بحديثهم أن يصرفونى عما أنا فيه ... ولكن ها أنذا أعود إلى نفسى وحيدا وأنا بينهم ... أهى الخمر أم أنا الذى ضربت دون الناس ودونى حجابا صفيقا ؟ .. لا ... ليست الخمر هى ماأريد ... لقد كنت أريد صديقا فحين وجدته عزلتنى عنه الخمر وأفكارى ...حلقة مفرغة ، دوامة لاأدرى لها بداية من نهاية ...

ودون أن يكلم أحدا من الجالسين قام صامتا وأخذ سمته إلى بيته ، ضاربا فى المساء المظلم لايحفل بالمصابيح على جوانب الطريق .

ـ ١٥ ـ

كان الشيخ سلطان جالسا إلى رضوان أفندى فى المقهى ، وكان صندوق النرد بينهما مقفلا لايحس واحد منهما الرغبة فى فتحه ، وقد خيم عليهما صمت لم يتنبها إليه حتى قال رضوان أفندى فى محاولة تبسط :

ـ ألاتلعب عشرة ؟ !

ونظرإليه الشيخ سلطان وظل رانيا إلى وجهه لحظات ثم قال فى غير إقبال :

ـ نلعب .

ثم صمت لحظات أخرى وقال :

ـ يا أخى أنا مشغول على مرقص أفندى .

وقال رضوان أفندى :

ـ وأنا مثلك ، لماذا لانقوم إلى بيته لنعرف سبب غيابه ؟

ـ لقد ذهبت إلى بيته أمس .

ـ هيه .. ماذا ؟

ـ لقد ترك البيت .

ـ ماذا ؟

ـ وجدته قد ترك البيت وقال لى الجيران إنه ذهب إلى مصر الجديدة .

وقال رضوان أفندى فى دهشة :

ـ مصر الجديدة ... ولماذا ... إن بيته هنا من أحسن بيوت المنطقة وهو قريب من عمله ، وقضى فيه سنوات طويلة.

ـ قرابة عشرين سنة .

ـ فلماذا ؟

ـ والأغرب من هذا أنه ترك البيت لصاحب الملك ولم يطلب مقابل إخلائه شيئا ... وحين حاول المالك أن يساومه قال له لاأريد شيئا ... وترك البيت .

ـ ألا تعرف عنوانه الجديد ؟

ـ حاولت اليوم أن أترك المكتب لمدة نصف ساعة لأذهب إليه فى الوزارة ولكنى لم أستطع ؛ كنت مشغولا طول اليوم .

ونظر رضوان إليه مليا ثم قال :

ـ الواقع أننى لم أرد أن أشغلك ... لقد ذهبت أنا إلى

مكتبه فى الوزارة .

وقال الشيخ سلطان فى لهفة :

ـ هيه ... وماذا قال لك ؟

ـ لم أجده ... وجدته فى إجازة تنتهى غدا .

ـ إجازة ... ونقل من الحى ... لعله طلب الإجازة ليتفرغ للنقل .

ـ انظر ...

ـ ماذا ؟

ـ أليس هذا مرقص أفندى ؟

ـ أين ؟

ـ هذا القادم من هناك .

ـ ماذا ؟ نعم ..لا .. نعم .. ماهذا ؟ .. كأنه خارج من قبر .. ماذا به ؟

وقام الرجلان يخفان لاستقبال صديقهما ، وأخفى كلاهما المشاعر التى تتماوج فى نفسيهما من خوف بثه إليهما منظر مرقص أفندى المتهدم كالصريع . ومإإن اطمأنت بهم الجلسة حتى قال الشيخ سلطان :

ـ أين أنت ؟

وقال رضوان أفندى :

ـ لماذا أخذت إجازة ؟

وقال مرقص :

ـ كنت متعبا بعض الشيء .

وقال الشيخ سلطان :

ـ لا ... سلامتك .

وقال رضوان :

ـ ماذا بك ؟

وقال مرقص بعد أن أخرج تنهيدة عميقة :

ـ تعب يارضوان ... تعب ... الدنيا كلها تعب .

ـ ياأخى قل لنا ماذا بك .

وقال :

ـ لاعليك ياشيخ سلطان ... لاعليك .

وصمت . وكأنما أراد أن يصمتنا ولكن رضوان أصر :

ـ ما المرض ؟

وصمت مرقص لم يتكلم ، وقال الشيخ سلطان :

ـ ماذا يامرقص أفندى ؟؟ لماذا لاتتكلم ؟

وسكت مرقص لحظة ثم قال :

ـ سأقول لك يا شيخ سلطان ... سأقول لك .

وقبل أن يتم جملته جاء صديقان ممن تعودوا أن يشهدوا مبارياتهم وجلسا . وقال أحدهما :

ـ ألم تبدءوا بعد ؟

ولكن السائل رأى الوجوم ماثلا على وجوه اللاعبين فسكت ، ومالبث مرقص أفندى أن قال للشيخ سلطان :

ـ أتسمح بكلمة ياشيخ سلطان ؟

وقام الشيخ سلطان مع صديقه وانفردا . وقص مرقص مصيبته وظل الشيخ سلطان ذاهلا بضع دقائق لايقول شيئا إلا :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. لاحول ولا قوة إلا بالله ..

وظل مرقص أفندى مطرقا يكبح دمعه وألمه وخزيه ، وقال الشيخ سلطان :

ـ ألاتأتى المصيبة إلامنى ؟ .. منى أنا ؟ .. حكمتك يارب .

وقال مرقص أفندى :

ـ هذه حكمة الشيطان ياشيخ سلطان ...

وقال الشيخ سلطان :

ـ اسمع يامرقص أفندى ... عباس سيتزوج إيفون ...سيتزوجها ورجله فوق رقبته ... سيتزوجها شاء هذا أو أبى ..أقسم بالله العلى العظيم ثلاثا ...

وقاطعه مرقص :

ـ انتظر ياشيخ سلطان ...انتظر ... كيف يتزوجها ؟

ـ يصلح خطأه .

ـ لو تزوجها لأصبحت المصيبة أعظم .

ـ ماذا ؟

ـ أنسيت ..نحن مسيحيون ياشيخ سلطان . لوتزوجها لأصبحت البنت على غير الملة ... وكفانى وكفاها مذلة واحدة!!

ـ وكيف نصلح هذا الخطأ يامرقص أفندى ؟ .. سأفعل كل ماتأمر به .

ـ كان الولد قد وعدها بالزواج ، وسيكون هذا الزواج هو الفضيحة التى لاأحتملها . إن كل ما أرجوه منك أن تبعده عنها ، ونحن يتولانا الله .

ـ ماذا ستفعل يا مرقص أفندى ؟

ـ أمها وعدتنى أن تدبر الأمر ... إنما المهم أن يبتعد عباس عن البنت . كفانا ما حصل .

ـ أكل ماتريده أن يبعد عباس عن البنت ؟ .. ألا أستطيع أن أصنع شيئا آخر ؟

ـ هذا كل ما أريده منك ...

ـ يامرقص هذا طلب بسيط ... أنالن أشعر حين أنفذ لك هذا الطلب أننى كفرت عن الجريمة التى ارتكبها الولد .

ـ أرجوك ياشيخ سلطان ...كل ما أرجوه أن يبعد عنا ويتركنا فى حالنا ... أنت على كل حال لن تستطيع التكفير عن هذه الجريمة .

ـ اعتبر أن طلبك قد تم .

ـ ليس لى غير إيفون ياشيخ سلطان ... لا أريد أن أفقدها ...

وأطرق الشيخ سلطان متأثرا وهو يقول :

ـ ربنا يعطيك القوة يامرقص أفندى .

وقام مرقص دون أن يزيد شيئا وأخذ سمته إلى الترام ، ومكث الشيخ سلطان مكانه قليلا ثم قام قائلا :

ـ أنا ذاهب إلى البيت يارضوان أفندى . هل ستبقى أم ستجىء معى ؟

وقام رضوان أفندى قائلا :

ـ أنا قادم معك .

وفى الطريق سأل رضوان :

ـ ماذا قال لك مرقص أفندى ؟

ـ لاشىء يارضوان .

وسكت قليلا ثم قال :

ـ لن نرى مرقص بعد اليوم .

وقال رضوان دهشا :

ـ ماذا ؟

قال الشيخ سلطان :

ـ لن نراه بعد اليوم ... مسكنه فى مصرالجديدة سيبعده عنا ولن يستطيع المجىء إلينا .

وقال رضوان فى دهشة لاتفارقه :

ـ هل أغضبناه فى شىء ؟

وأطرق الشيخ سطان ولم يجب ، ولم يجد رضوان بداً من السكوت هو أيضا ، وواصلا طريقهما صامتين .

* * *

ما كاد الشيخ سلطان يبلغ البيت حتى سأل وهيبة وهى تفتح له الباب :

ـ الولد عباس هنا ؟

وقالت وهيبة فى دهشة :

ـ نعم ياأبى .

ـ أين هو ؟

– فى حجرته .

فاتجه إلى حجرة ابنه وهو يقول :

ـ لاتجعلى أحدا يأتى إلينا .

وحين دخل حجرة عباس أقفل الباب من خلفه ثم استقر على كرسى . وقام عباس واقفا وظل الشيخ سلطان ينظر إليه بعينيه الحمراوين، وطال صمته وعباس يكاد يدرك ما ينوى أبوه أن يحدثه عنه ... وأخيرا قال الشيخ سلطان :

ـ ماذا فعلت بمرقص أفندى صديق العمر ؟

وقال عباس بلا ريث تفكير :

ـ سأتزوجها .

وارتكز الشيخ سلطان بيديه على ركبتيه وتشبث بهما فى غيظ وقال :

ـ اسمع ... والله العظيم .. والله العظيم ..والله العظيم ثلاثة ، وأنت تدرك قيمة هذه اليمين عندى .. لو فكرت يوما أن تذهب إلى بيتهم أوفكرت أن تتزوجها كماتقول لتظهر لنفسك أنك حر لأبرأ منك لاترى منى مليما واحدا ... وسأبيع كل ماأملك بيعا صوريا لأختك . لن تنال مليما واحدا بعد موتى ... ولاأراك فى حياتى ولاأعرفك ... بل وأقاطع كل من يحاول أن يتصل بك .

وأحس عباس بشعور عجب له ... أحس بالراحة ...أحس كأن نوعا من القلق الذى يلازمه يزول عنه ... هدوء ساد قلبه لم يستطع أن يتبين سببه ، وصمت عباس وأطرق واستأنف أبوه:

ـ لو كنت أعلم أن قتلك يمحو العار الذى ألحقته بهذه الأسرة المفجوعة لقتلتك وأنا مرتاح الضمير هادىء النفس ... وقد كنت أعلم يوم هزأت بدينك أنك ستنحط إلى أسفل الدرك الذى يسمح لك أن تغول أسرة كانت صديقتنا طول العمر ، وتهتك حرمتها ...ولكنك سافل ... سافل ووضيع ، وإنى أطعمك فى هذا البيت ولاأريد أن أراك فاجتهد ألاترينى وجهك. سأكون سعيدا يوم تنتهى من كليتك لا لأنك تعلمت

ولكن لأنى أنا سأكون قد أديت واجبى ولو أنى أكون قد أديته لكلب لايستحق . وعلى كل حال سأبحث عن أحسن طريقة تحمينى من رؤيتك ...خيبة الله عليك ، وأخزاك فى الدنيا كما أخزيتنى وأنزلك إلى جهنم فى الآخرة وبئس القرار .

وقام الشيخ سلطان هادئ الحركة ثائر النفس ، وخرج وأغلق الباب من خلفه وهويقول :

ـ حسبى الله ونعم الوكيل ... حسبى الله ونعم الوكيل .

ـ ١٦ ـ

انتقلت إيفون إلى مدرسة بمصر الجديدة وعلمت بما كان من أبيها ، واستغلقت من دونها الطرق . وفكرت أن تهجر البيت ولكن إلى أين ؟ .. كيف تعيش ؟ .. إنها تستطيع أن تعمل وعلى هذا الرأى استقرت إيفون ... وأخذت تدبر الحيل لتصل إلى صديقة لها تعرف أن أباها ذو شأن فى الشركات .

وفى يوم ادعت المرض واستطاعت أن تجعل المدرسة تعطيها إذنا بالخروج فخرجت .وذهبت إلى صديقتها فى مدرستها القديمة وقدمت إليها رجاءها وأعطتها عنوانها على المدرسة .

وماهى إلا أيام حتى جاء البريد بالخطاب وتم تعيينها .

وفى الليل استطاعت إيفون أن تتسلل من البيت ، جميع ماتملكه من خمسة جنيهات وحقيبة مليئة بالملابس ... ونزلت إلى الطريق ... إلى أين ؟ ..واجهت الطريق وهى جاهلة به لا

تدرى فيه المتجه ولا السبيل ... مشت ... أهذه هى المسيحية؟ .. أهذا هو الدين الذى يقول : « قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك قربانك قدام المذبح واذهب أولا اصطلح مع أخيك » ؟أليس عباس وقوم عباس إخوانى فما هذا العداء بينى وبينهم ؟ .. أليس الدين محبة ؟ .. أليس الله محبة ؟ .. فماذا هذا العداء ؟ .. ولماذا تحرمنا الكنيسة من التآخى ؟ .. هل جاء المسيح ولقى هذا العذاب والأهوال وانتهى به الأمر إلى الصليب لنظل نحن أعداء البشر من غيردينننا ؟ .. ما الدين بغير حب وأخوة وسلام ؟ .. أين السلام ؟ .. أين الحب ؟ .. لماذا يحرموننى منه ولماذا يحرمونه منى ؟ ..

ماذا جنيت أو جنى ؟ لقد ولدت مسيحية وولد مسلما فأى ذنب اقترفت وأى ذنب اقترف ؟ .. ليس هذا هو الدين الذين أحببت ...براء أنا منه ... لاأدخل كنيسة ألقت بى إلى الضياع ... لا ... هذا الدين هو الرحمة التى نرجوها . براء أنا منه . ولكن أين أذهب ... غدا موعدى مع العمل ولكن ... كيف أعيش ؟ ...أين يستقر بى المكان ؟ .. أين أذهب ؟

ركبت إيفون المترو وظلت به حتى انتهى به المسير إلى

قلب القاهرة فنزلت ، وعادت إلى الضياع مرة أخرى ... إلى أين ... ونظرت حولها فوجدت أمام المحطة التى انتهى إليها المترو كنيسة فنظرت إليها مليا وقالت دون أن تتكلم :

ـ أدخلك لأن بك مقاعد أستريح عليها حتى يطلع الصباح ، ولكن غيرمؤمنة بك أدخلك .

ودخلت الكنيسة وانتظرت بها الصباح حتى جاء .

وتوجهت إيفون إلى مقر الشركة وكان جمالها بين يديها لايحتاج إلى وساطة ، فسرعان ماتسلمت عملها بعد أن حاول كل رئيس ضمها إلى قسمه ، فما انتهى بين الرؤساء جذبها إلا حين رآها مدير الشركة فأصبحت فى مكتبه . ووجدت زميلات لها بالعمل استطاعت أن تعرف منهن بنسيون تقيم فيه فأقامت.

ومرت بعض الأيام حتى وجدت فى غياب المدير فرصة أن تترك العمل قبل موعده المحدد ، وأخذت سمتها إلى كلية الهندسة .

وعلى مبعدة قريبة من الباب وقفت ترقب الخارجين والداخلين . وطالت بها الوقفة وطالت فلم تمل ... وأخيرا بدا عباس خارجا من الكلية ... وكان بين رفقة فلم تحفل وإنما

اقتربت ونادت :

ـ عباس !

وسمع عباس النداء وعرف الصوت ولكنه لم يملك نفسه أن يقول في دهشة :

ـ من ؟

والتفت الرفاق إلى مصدرالصوت ونظروا إلى عباس ، وقال عباس في سرعة :

ـ عن إذنكم .

ولم ينتظر إجابة منهم بل قصد في خطوات متسارعة إلى إيفون :

ـ ماذا يا إيفون ؟ ما الذي جاء بك ؟

وقالت في حزم :

ـ أريدك .

ـ تعالى !

ومشيا . كانت أول مرة يسيران معا في طريق وكان عباس يتلفت حواليه كأنمايخشى أن يراه أحد ... وكان قسم أبيه المغلظ مايزال يطن في أذنية فتموج له نفسه في رعب .

وأحست إيفون خوفه وتلفته فصمتت قليلا ثم قالت :

ـ ماذا يخيفك ياعباس ؟

فأفاق من خوفه ليقـول فى لعثمة :

ـ أنا ... أنا ... لاأبدا ... أنا غير خائف .

وقالت :

ـ أين نستطيع أن نتكلم ؟

ـ كما تشائين .

ـ أريد أن أحادثك حديثا طويلا .

فقال بعد تردد :

ـ فى جنينة الأورمان .

ووجدا مكانا خاليا فى الحديقة وجلسا . وقالت :

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ فيم ؟

ـ ألاتعرف فيم ؟ .. فى مستقبلنا .

ـ ألم تعرفى ماذا فعل أبوك ؟

ـ نعم أعرف .

ـ ماذا بيدى أن أفعل ؟

ـ ماذا بيدك أن تفعل ؟ .. أهذا كل ما تستطيع أن تقدمه لى ؟ .. ماذا بيدك أن تفعل ؟ ..

ـ لقد حرم على أبى أن أراك بناء على طلب أبيك .

ـ ألم تكن تتوقع هذه المعارضة ؟

ـ كنت أتوقع ألايجد أبى مناصا من قبول الزواج .

ـ أفكرت فى أبيك وحدك ولم تفكر فى أبى أنا !

ـ لم أكن أتوقع أن يعارض هذه المعارضة القاسية .

ـ ألم تتوقع أن تعتمد على نفسك ؟ .. ألم يدخل فى حسبانك أن تحتمل أنت مسئولية ما ؟

ـ ماذا أستطيع أن أفعل ؟

ـ عباس ... حين جئت إليك لم أكن أعتقد أننى سأناديك باسم الواجب أو المسئولية ، وإنما كنت أعتقد أن الحب بيننا هو الذى سيصنع كل شىء .

وصمت عباس قليلا ثم قال :

ـ وماذا جرى ؟ ..

فقالت فى حسم :

ـ إنك لم تعد تحبنى .

ـ من قال هذا ؟

ـ رأيته على وجهك صريحا واضحا ...

ـ أنا ... على وجهى ؟

ـ رأيت الدهشة فى عينك حين رأيتنى وكنت أرجو بل كنت أعتقد أننى سأجد الحب ، و رأيت تلفتك فى الطريق وكنت أعتقد أننى سأجد اللهفة على مكان تجلسنى فيه ، ورأيت نفسى أنا من أسألك أن تجد مكانا ولم تكن أنت من فكرت .

وكان عباس مطرقا فحين سكتت قال فى استخزاء :

ـ كنت أفكر ماذا نستطيع أن نصنع .

ـ كانت ثقتى أننا سنترك للحب أن يصنع كل شىء ... لقد فقدتك ياعباس يوم أعطيتك نفسى .

ـ لا ... لا أبدا ياإيفون ... كل ما فى الأمر أننى لاأدرى ماذا يمكن أن نصنع .

وقالت إيفون فى ثقة وجمود وتحد :

ـ لقد صنعت أنا .

وفى دهشة منتفضة قال عباس :

ـ ماذا صنعت ؟

ـ تركت بيت أبى وتسلمت وظيفة ، وجئت اليوم أدعوك أن نتزوج ونعيش معا ونحقق الآمال التى كنا نبنيها للمستقبل

ـ ماذا ؟

ونظرت إليه إيفون مليا دون أن تقول شيئا ، ومضى عباس يقول بعد تفكير قليل :

ـ والكلية ؟ .. وأبى ؟

ـ إن مرتبى يكفى ونستطيع أن نعيش .

ـ أترك أبى ؟

ـ لقد تركت أنا أبى .

ـ ولكن ... ولكن ...

وظلت إيفون ناظرة إليه تنتظر حجته القادمة ولكنها أدركت فى لحظتها تلك أنها فقدت عباس إلى الأبد ... ولم يطل عباس السكوت بل قال :

ـ ولكن هل أعيش على نفقتك؟

ـ أنا إيفون ... أنسيت من أنا ؟ .. أنا أنت .

ـ ولكنك على كل حال امرأة ... أنا لاأقبل أن أعيش من إنفاق امرأة .

وفى وجوم جامد قالت إيفون :

ـ عجيبة .

وكأنما أحس عباس أن حجته قوية فهو يوغل فى الاعتماد

عليها :

ـ وما العجيبة فى هذا ؟ .. العجيبة أن أقبل ...

ـ إذن فهى التقاليد ... وأحكام المجتمع ... وكل ما كنت تدعى أنك تكفر به .

ـ بل إنى .. بل إنى ... بل إنى أنا مقتنع أنه لايجوز لامرأة أن تنفق على رجل .

ـ أين اقتناعك هذا من قوانين المجتمع التى كنت تقول إنك غير مؤمن بها .

ـ بل ... بل من وحى اقتناعى أنا ... هذا مبدأ أنا أحترمه ولا أقبل غيره ... أأعيش من إنفاقك ؟ .. أهذه أخلاق ؟ !

ـ إذن فالأخلاق أن تعتدى علىّ وتحطم حياتى كلها وتجعل منى شقاء لأبى وعارا لأسرتى ولاتقبل أن تعيش من كدى الشريف النقى ؟ ..أين الأخلاق فيما تقول ؟ .. أين الشرف الذى تحاول أن تدعيه ؟

ـ هذه مسألة مبدأ .

ـ كن ما تريد أن تكون ولكن لاتحتمى من عجزك وراء الشرف والتقاليد والأخلاق ...

ـ إيفون .

واندفعت إيفون فى غيرتوقف :

ـ أن تحطم حياتى وتقتلنى بين أهلى وبين الناس أهون عندك من أن تعيش من كسبى الشريف . أهذا هو الشرف عندك ؟ ! . أنا لن أقول لك اعتبر ما أدفعه لك أثناء تعليمك سلفة تردها حين تستطيع لأنى أعرف أنك لاتؤمن حقا بما تقول وإنما أنت تجعل من حديثك الزائف ستارا تحتمى خلفه وهيهات . لن أقول لك شيئا فأنا أعرف أن شيئا لن يفيد ...وداعا ولن أراك .

وقامت إيفون وأولته ظهرها وهمت بالمسير ، وقال عباس فى اضطراب :

ـ إيفون .

وتوقفت لحظة ثم لم تسمع شيئا فمشت عنه فى خطوات حازمة وقلب مليء بالقلق والخوف والغضب .

ورنا إليها عباس وهى تمضى وظلت عيناه عالقتين بها حتى غابت عن عينيه فأطرق معتمدا رأسه على كفه المرتعشة وتساقطت الدموع من عينيه ووجد نفسه يقول بلا وعى :

ـ سافل ...سافل ... سافل ...

ـ ١٧ ـ

تخرج عباس فى كلية الهندسة فقد استطاع أن يفرغ لمذاكرته من هذه الأحداث حتى نجح ... ولم يكن لقاؤه لأبيه يسمح له أن يخبره بنجاحه فقد كان أبوه لايراه إلا إذا شاءت الصدفة أن يراه . وعرفت أمه بالنجاح فأقبلت على أبيه فرحانة أن تزيل بهذا النبأ الهام فى تاريخ الأسرة مايحمله الأب على ابنه من غضب وسخط ... ولكن لم يفلح حصول عباس على شهادة الهندسة أن يمحو بعضا من غضب أبيه وإنما كل ماقاله فى غير اهتمام :

ـ غريبة .

وصمتت الأم قليلا فقال الشيخ سلطان :

ـ اسمعى يازكية ... أنا لا أريد هذا الولد فى البيت ولم يبق له فى عنقى إلا أن يتزوج فاسأليه ، فإنى أريده أن يخرج من البيت بسبب مقبول أمام الناس ، كما أنى أريد أن

أتخلص من مسئوليته تماما .

وقالت زكية فى طيبة ساذجة :

ـ ألاتريد ابنك فى البيت ؟

ونظر إليها الشيخ سلطان وأوشك أن يثور ، ولكنه رأى السذاجة على وجهها فقال فى غضب مكبوت :

ـ ابنى الكافر الملحد الزنديق خرّاب البيوت الزانى ... ابنى هذا ليس ابنى ... إنه لم يصبح عندى إلا مسئولية أريد أن ألقيها عن عاتقى ... أفهمت .

وأطرقت زكية فى استسلام وقالت :

ـ أمرك .

وقامت عنه كسيفة ... ورآها عباس تعود إليه بوجهها الشفاف الذى لم يستطع أن يخفى شيئا يعتمل فى نفسها .. وعرف ماتحمل أمه من فرحة صريعة وبهجة وأدها أبوه قبل أن تتنفس ، فقام تاركا البيت يبحث عن مكان آخر يستطيع فيه أن يقول نجحت ويجد انعكاس كلمته فرحة على وجه وابتسامة طليقة غير موءودة .

واستقبله بيت خالته فى حنان ، كانت ليلى هناك وكان لطفى وكانت الخالة وكان رضوان أفندى ... كانوا جميعا وكانوا

فرحين فقد نجحت ليلى كما نجح لطفى ... وحين رأوا عباس والفرحة الحائرة على وجهه قالت ليلى :

ـ نجحت ... أخذت الدبلوم أليس كذلك ؟

وامتلأت نفس عباس غبطة أن أدركت ليلى ما بنفسه وقال :

ـ نعم

وأطلقت خالته زغرودة كبيرة ثم قالت :

ـ ألف مبروك يابنى ... ألف مبروك .

وقال عباس :

ـ الله يبارك فيك ياخالتى .

وضحكت ليلى وهمست فى تساؤل !

ـ قلت الله ؟

ولم يكن المجال متسعا ليناقش فقد عاجله رضوان أفندى بالتهنئة وتقدم إليه لطفى يقبله . وقال عباس وهو بين أحضان لطفى :

ـ وأنت نجحت يا لطفى طبعا ... إنك لاتتنازل عن مرتبة الامتياز .

وقالت ليلى :

ـ وأنا نجحت بجيد فقط ... أصبح لطفى أحسن منى... زمن !

وقال لطفى :

ـ لوأحسنت المذاكرة لما كنت فى حاجة إلى الحسد ...

وقالت الأم فى جد :

ـ ماذا جرى لك ياليلى ؟ .. ستحسدينه ... سأرقوك يالطفى يابنى ، مايحسد المال إلاأصحابه

وضحكت ليلى قائلة :

ـ لاتخافى يا نينا سأحضر له أنا خرزة زرقاء .

ودار الحديث وأحس عباس أنه مطمئن غير قلق و أنه فى المكان الذى يجب أن يكون فيه .ولم يكن هذا الشعور جديدا عليه فقد تعوده فى هذه الجلسة ... بل تعوده !! نعم لقد تعوده كلما نظر فى عينى ليلى ... إنه يرى الاطمئنان ينال من عينيها فيعصف بالقلق الذى لا يزايل قلبه ، ويرى فى وجهها الأبيض الناصع نورا يرود نفسه المظلمة فيمحق الظلام فى نفسه ، ويراح إلى لون من الهدوء والأمن هما غاية ما يصبو إليه فلايجده ...

ماذا تحاول الفلسفات جميعا أن تصنع ؟ بل ماذا تحاول

الأديان كلها ؟ أي غرض للأنظمة السماوية وغير السماوية إلا أن تشيع الأمن فى نفوس الناس وتجعلهم يقبلون على الحياة إقبالة مطمئن ؟ كفرت بالدين وآمنت بنفسى لأن الدين كان يتمثل فى نفسى قلقا وخوفا من أبى . وكفرت بنفسى وأصبحت أؤمن بالعلم لأن نفسى خذلتنى ولم تستطع أن تقف إلى جانبى حين احتجت لها أن تقف إلى جانبى .

يوم تركتنى إيفون فى مقعدى بالحديقة أحسست أننى أنا الإنسان ضعيف ،لا أستطيع أن أفعل مايجب على أن أفعل وإنما تسيرنى الأهواء ويرسم لى المجتمع طريقى لاأستطيع عنه حولا ... واليوم بماذا أومن ؟ .. بالآلة ... إنها الشيء الذى يسير فى طريقه المرسوم لاتؤثر عليها عوامل الحب والكره أو الخوف والجرأة أو الرغبة والعزوف ، إنما هى تسير طريقها فتجتاح العالم وتسيطر على مسالك الحياة فيه ... ولكنى مع ذلك أخاف هذا الإيمان الجديد ... أنا لا أجد الأمن إلا فى وجه ليلى .. إنها مطمئنة دائما .. أراها فأطمئن . هادئة دائما .. أراها فأهدأ ... ما الذى ألقى فى نفسها هذا الهدوء وهذا الاطمئنان ؟ .. أهو فلسفتها البسيطة من إيمانها بالسماء ومن أن المعجزات مقبولة مادام الإنسان لم يستطع أن يصل إلى سر

نفسه ؟ لعل الأمر كذلك ... فما لى لا أفعل مثلها ؟ .. ولكن كيف ؟ .. كيف أومن بما لم أر ، وما أراه جبار شاهق ؟ .. الإنسان يصك جبين القمر ويسير آلته حول الأرض وأنا أسير وراء هؤلاء القوم الطيبين الذين لا يرون شيئا إلا قالوا فى خدر وسذاجة : « سبحان الله علم الإنسان ما لم يعلم » ... ولكنى أطمئن حين أرى ليلى ... فلألتمس من وجهها الهدوء وليكن لها رأيها وليكن لى رأيى .. وأى ضير فى ذلك ؟

وصحا عباس من تفكيره على صوت ليلى تقول :

ـ هيه ... أين أنت ؟ .. فيم تفكر ؟ .. طبعا ليس فى خالق السماوات والأرض .

وقال عباس :

ـ كم الساعة الآن ؟

وقالت ليلى :

ـ أنت ستتغدى عندنا اليوم .

ـ ولكن ... ولكنهم فى البيت لا يعرفون .

ـ لا عليك ... سأرسل لهم سيدة تخبرهم .

واستراح إلى هذا ومكث .

* * *

وحين طالت جلسته بعد الغداء أحس أنه لابد أن ينزل ...وكان الوقت بعد الظهيرة وكان يريد أن يرى شعبان فقصد إليه فى بيته فوجده يلبس ، فجلس معه فى الحجرة حتى يتم لبسه ولكنه وجده يحاول التأنق محاولة واضحة لاسبيل إلى التغاضى عنها .

- إلى أين ؟ .. أراك مهتما بملبسك .

- أقول لك ولاتضحك ؟

- قل .

- لا .. ستعرف فى الوقت المناسب .

- إذن فأنت بسبيلك إلى الزواج .

- أعتقد أنك لم تكن محتاجا إلى ذكاء كثير لتعرف ، فقد كانت إجابتى موحية بهذه الفكرة .

- مبروك ياشعبان ... والبار والرفاق ؟

- لى شهر الآن لم أشرب نقطة خمر ولم أطأ البار بقدمى .

- كل هذا التغير فى الفترة التى تركتك فيها .

- كنت محتاجا إليك فى هذه الفترة ياعباس لأقول لك ما لم أقله لأحد ... ولكنى كنت أخشى أن أعطلك عن المذاكرة .

- قل ... قل يا شعبان .

ـ أصبحت لا أحتاج إلى الضحك ... نفسى كلها مشرقة بغير حاجة إلى صنع الضحك ... أصبحت أصلى يا عباس فأحس بخشوع كبير أمام الله .. عرفت الحب فأحببت الله ...كنت أعبده إيمانا به فأصبحت أعبده لأنى أحبه ولأنه هيأ لى كل هذه السعادة... نفسى تضحك ... تضحك دائما فالقهقهة التى كنت أدبرها أصبحت إذا قارنتها بالضحك فى نفسى ضجة لالزوم لها ،.

ـ ما أسعدك !!

ـ ألم تحب ؟ .. أحب ياعباس ... إذا أحببت استطعت أن تفهم المعجزات التى تراها فى الدين واستطعت أن تستسيغها ، بل إنك سترى أن كل من لا يؤمن بها مجنون لايفهم . ألم تحب ياعباس ؟ .. ألم تحب أبدا ؟ !

وأطرق عباس وطافت بذهنه ليلى ثم تذكر إيفون ، ثم هز رأسه وهو يقول :

ـ لا أدرى ... لا أدرى ياشعبان .

ـ لاتدرى ؟ .. هذا غير معقول ... أنت فقط لا تريد أن تدرى ... ولكن هيهات لك أن تخادع نفسك فى الحب . إنه طاغ قاهر يفرض نفسه عليك .. شئت هذا أم أبيت .

ـ يفرض نفسه عليّ ؟ !

ـ إلى الجحيم حريتك ... إلى الجحيم ... كم ستسعد لو أنك صارحت نفسك بحبك ، وكم ستسعد وأنت ترى حريتك مهزومة أمام حبك تتخلص من سيطرتها عليك لتترك الحب وحده يسيطر عليك .

ـ حريتى مهزومة ؟ !

ـ الحرية حرية القلب ... إذا أحببت ستحس أنك تستطيع أن تقول كل ماتريد أن تقول وأن تفعل ما تريد أن تفعل .. اترك قلبك يحب .. لاتقف أمامه بحريتك هذه البغيضة ، ولاتحاول أن ترده عما يريد .

ـ كلام شعراء .

ـ لقد عاش أجدادك وأجدادى آلاف السنين على كلام الشعراء هذا ... لولا كلام الشعراء لانقرضت البشرية .

ـ البشرية حقيقة ثابتة وكلامك خيال وأوهام .

ـ ياأخى صلّ على النبى ... أيستطيع أحد أن يعرف أين الوهم وأين الحقيقة فى هذا العالم ؟ .. من الأوهام والأحلام تولد الحقائق ، وعن الحقائق تنثال الأحلام والأوهام ... ما الطائرة ؟ .. لقد كانت حلما . وما الصعود إلى القمر ؟ حلم

امتزج بالحقائق ... دع عنك هذا التفريق .

ـ كلام محب .

ـ أليس جميلا ؟

ـ لست أدرى .

– أطلق لحبك العنان ... لاتمسك به ... اقبله وأحب حبك وسترى .

ـ هل حان موعدك ؟

ـ هيا بنا .

ونزلا وذهب شعبان إلى موعده وراح عباس يضرب فى الطريق على غير هدى .

* * *

كان الوقت متأخرا حين عاد إلى البيت فوجد أمه جالسة فى حجرته وقد عبقت الحجرة بالبخور ، والأم ممسكة بسبحة تسبح عليها فى هدوء خاشع :

ـ أتتركنا يوم نجاحك ولاتجعلنى أراك طول اليوم ؟

ـ كنت عند خالتى !

ـ قل لى ياعباس ألاتفكر فى الزواج ؟

ـ يبدو أننى لاأقابل أحدا اليوم إلا وكلمنى فى الزواج .

ـ ياابنى أجبنى .

ـ افرضى أننى فكرت .. كيف أستطيع أن أدفع المهر وأنفق ؟

ـ لاشأن لك .

ـ أبى لن يقبل .

ـ قلت لاشأن لك .

ـ إذن ...

وصمت ... لماذا لا تتزوج ؟ ... إنه يعرف من يريد ويستطيع أن يترك البيت فيريح أباه ويستريح هو أيضا ... وقالت أمه :

ـ لماذا لا تجيب ياعباس ؟

ـ نعم يا أم ... أتزوج .

ـ أتترك لى أن أخطب أم ... ؟

وقال عباس فجأة ودون مداورة :

ـ اخطبى لى ليلى .

ونظرت الأم إلى ابنها فرحة غيرمصدقة ، ثم قالت والفرح يكاد يعقد لسانها وقلبها شديد الخفق عالى الوجيب :

ـ هل أنت جاد ياعباس ؟

وقبل أن تسمع جوابه اندفعت فى الليل البهيم زغرودة مجلجلة ، أطلقت فيها زكية فرحها الذى ظل يملأ قلبها طوال اليوم محاذرا أن يعبر عن نفسه فى غير الابتسامة المتوارية عن عين الشيخ سلطان .

- ١٨ -

« ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان » .

ظلت هذه الكلمة تلح على ذهن إيفون أياما كثيرة ... تحاول أن تنساها فتعجز .

إنها كلمة المسيح ، وقد كفرت بالأديان جميعها فما لهذه الكلمة تأبى أن تفارق نفسى ؟ .. مالى وللأديان ومالى وما يقول المسيح ؟؟ .. ولكن هذه ليست وعظا دينيا ولا هى تشريع ... إنما هى حق .

حق أحسته بعد فترة من عملها بوظيفتها الجديدة ... إنها تأكل وتحيا وتعمل ولكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ... كانت تريد قلبا ... كانت تريد أباها وأمها ... كانت تريد أقاربها ولكن ... كيف السبيل إليهم ؟

ما أعظم الفراغ فى هذه الحياة إذا ما أصبح الإنسان فى حياته فردا بلا قلوب حوله تجعل كيانه ينسجم فى نسيج

البشرية ، فيصبح قطعة من قماشها لا يتسم بسمة الوحدة الكريهة .

وطال الصراع فى نفس إيفون أياما وشهورا ، ثم عزمت أمرها وراحت تزور أقاربها ... يا لها من نفسها ومما صنعت... وجوه تلتوى عن ازدراء ، واستقبال إن رق فهو العطف البغيض وإن ظهر على طبيعته فهو تحيه تعلن إلى إيفون ألا تعود . ولم تكن تعود ... أبواب مقفلة فى وجهها وإن فتحت مصاريعها ، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ... بيت واحد استقبلها لم يضق بها هو بيت منى ... فيه لقيت ما كانت تشتهى أن تجد . وفرحت إيفون بهذا القلب الجديد القديم وإن شابت فرحتها غصة جاهدت أن تغضى العين عنها. لم يكن ميشيل زوج منى يلقاها بهذا الترحاب ... كان يمشى ويترك البيت أو يمشى ويترك الغرفة ... ولكن ما لها وما له إنها تريد منى ولا تريد ميشيل .

وكانت منى تنقل إليها أنباء أبويها وكانت تستمع إلي هذه الأنباء فى حسرة أليمة ... أبوها لا يخرج من البيت منذ يعود من الديوان ، وأمها لا تقابل أحدا ولا تحتفى بزائر ... وقل الزائرون فلم يعد من يذهب إلى البيت إلا شفيق . ويحاول

شفيق أن يسلى أخاه فيشترى نردا ليلاعبه فلا تفيد التسلية ، ويحاول أن يحادثه فلا يجد لحديثه مجيبا ... وتمضى الأيام بأبيها وأمها كئيبة الخطى ثقيلة ... يحسان الخزى والألم والعار ولا يجدان لدفعها سبيلا .

وكانت منى إذا أحست ما أنزلته أخبارها بإيفون من ألم حادت بموضوع الحديث إلى غيره ، واستدرت هى أحاديث إيفون ...

***

فرغت إيفون من عملها بالشركة فى يومها ذلك وذهبت إلى البنسيون الذى تقيم فيه وتناولت غداءها ، ثم بدلت ملابسها ونزلت قاصدة بيت منى .

واستقبلتها منى فى إشراقة مبتدرة ما لبث غيم من ألم أن غشاها ... كأنه الغصة تحسها عند رفيقك ولا تراها ... وتجاهلت إيفون هذه الإلمامة العارضة التى شابت استقبال منى وجلستا . وقالت إيفون :

ـ هل ذهبت إلى هناك ؟

وقالت منى فى اقتضاب :

ـ أبدا .

ـ ألم تسمعى شيئا جديدا من عمى شفيق ؟

ـ أبدا ... ما أخبارك أنت ؟

ـ أنا مبسوطة ... جميع من فى المكتب يحبنى وعملى يسلبنى دائما وأتعلم الآن الآلة الكاتبة ... وأعتقد أنهم سيعطوننى علاوة والرئيس يقول إنه سيرقينى و ...

وقبل أن تكمل وجدت نفسها تبكى بكاء حاولت جاهدة ألا تصل به إلى النشيج ولكن هو البركان لا يوقفه شىء ... وحزرت منى ما يبكى ابنه عمها فراحت تربت كتفها فى حدب وألم ... ثم قامت عنها وأحضرت لها كوب ماء وكولونيا . واستطاعت إيفون أن تسكت أخيرا وقالت :

ـ آسفة يا منى .

ـ لا عليك يا إيفون أنا فاهمة .

وأقامت إيفون بعد ذلك وراحت تلقى الحديث محاولة أن تبدو أمام منى أنها تمالكت نفسها ومنى ترنو إليها فى إشفاق وضاقت إيفون بإشفاق منى وودت لوتستطيع أن تقول لها :

ـ أنا بخير ... أنا سعيدة ... أنا فى غير حاجة إلى شفقة من أحد ... حتى ولا منك أنت ... أنت التى لا أستطيع أن أدخل بيتا غير بيتها .

ولكنها لم تستطع أن تقول ... كيف تقول ؟ ! ولم تجد ما تفعله إلا أن تقوم فقام بالإنصراف وفتحت الباب الخارجي وهي تتباطأ ... هناك سؤال لم تسأله مني ... سؤال كانت تسأله لها في كل مرة تزورها فيها لم تسأله لها هذه المرة. متى تجيئين ؟ لعلها نسيت ... تباطأت مرة أخرى ولكن السؤال لم يدر بذهن مني ... لابد أنها ناسية ... ماذا أفعل حتى أذكرها ؟ ! تحدثت عن فراغها وعن السعادة التى تلقاها بزيارتها لها ولكن الحديث الدائر البعيد لم يفد شيئا ... ولما أخفقت الإشارة عمدت إلى التصريح .

ــ مني هل أنت في البيت بعد غد ؟

وصمتت مني قليلا وسارعت إيفون :

ــ لا عليك ... آتي ...

وقبل أن تكمل قالت مني في ألم متخاذل خجلان :

ــ والله يا إيفون لا أدري ماذا أقول لك ؟

وبهتت إيفون ثم قالت :

ــ إذن فهم يمنعونني عنك أنت أيضا ...

وأطرقت مني وقالت إيفون :

ــ من طلب منك هذا ؟

وظلت منى مطرقة لا تجيب وقالت إيفون :

ـ أهو أبى ؟

وقالت منى فى استخزاء :

ـ ميشيل .

وأحست إيفون كأن الطعنة تخف عنها هونا فقالت :

ـ حسنا ... وداعا .

ونزلت السلم وخرجت إلى الطريق ومشت لا تعى شيئا ولا تدرى أين تولى وجهها . وطال بها السير وطال وهى تمشى من طريق إلى طريق تقودها قدماها لا عيناها ، دموعها تنثال فى سكون فلا تستطيع أن تخفف مما بها شيئا . كانت الشمس قد أخذت فى المغيب ولكن النور كان لا يزال يغمر الكون ... وأحست إيفون لذعة من برد فأمسكت ذراعيها بيديها فبدت كأنها تحتضن نفسها ، ونظرت حواليها وكأنها تلتمس ملجأ... ودارت بعينها فى المكان فوجدت بيوتا أبوابها جميعا مقفلة ... ثم رأت كنيسة بابها مفتوح على مصراعيه ... وفى حزم مشت إلى الكنيسة فدخلتها ، وطالعها تمثال المسيح فى صدرها ، وركعت أمامه فى إجلال وراحت تحادثه كأنما تكلم شخصا تراه ويراها .

ـ أيها المسيح الحى ... يخيل إلى أنهم صلبوك لتظل إلى الأزل مفتوح الذراعين مرحبا بالتائبين . يأيها الروح القدس إننى تائبة ... إننى أعود إليك وأعلم أنك قد قبلت عودتى .

وظلت إيفون راكعة فى مكانها ، وأطالت الركوع حتى أحست أنها أصبحت تستطيع أن تصنع ما كانت تخاف أن تصنعه منذ زمن طويل .

قامت إيفون وخرجت من الكنيسة ، وعلى ضوء المصابيح الباهر أخذت طريقها إلى بيت أبيها .

ـ ١٩ ـ

أرادت زكية أن تقيم لابنها فرحا ولكن الشيخ سلطان أبى عليها ذلك ،أما حميدة فقد استطاعت أن تقنع رضوان أفندى بإقامة الفرح فأقامة . وكانت ليلة . واستطاع لطفى أن يخلو إلى وهيبة والناس فى شغل عنهم بالعروسين وقال لطفى :

ـ مبروك يا وهيبة !

وقالت وهيبة فى خجل :

ـ مبروك أنت أيضا .

وقال :

ـ العقبى لنا .

وأطرقت وهيبة وقد ملأت الحمرة وجهها ، وقال لطفى :

ـ أشكرك يا وهيبة .

ـ علام !

ـ عرفت بالخطيب الذى جاء لكم .

وضحكت وهيبة وسكتت ... وقال لطفى :

ـ ماذا فعلت لتجعليه ينصرف ؟

ـ قمت بواجباتى . ألم تقل لى إن عليك واجبات ؟

ـ نعم ... كيف نفذتها ؟

وضحكت ثانية وقالت :

ـ بسيطة .

ـ كيف ؟

ـ لبست منديلا على رأسى ، واخترت ثوبا أعرف أنه يجعلنى أبدو غاية في الغباء .

ـ ولكن الشيخ سلطان كيف قبل أن يراك العريس ؟

ـ كنت متأكدة أنه سيقبل ... عملا بالحديث الشريف ... (أن يراها مقبلة مدبرة فإنه أحرى أن يؤدم بينهما).

ـ هو هذا ؟

ـ وطبعا حين رآك فى المنديل والفستان .

ـ لا تقل فستان ... ثوب ... ثوب ... لم ألبسه إلا فى البلد .

وقهقة لطفى وقال :

ـ لم يعد العريس طبعا . ماذا فعل الشيخ سلطان ؟

ـ فهم أنى لا أريد العريس وسكت .

ـ عظيم ... ولكن ...

وأطرقت وهيبة وقال لطفى :

ـ أخشى أن يجىء غيره .

وظلت وهيبة ساكنة وإذا لطفى يقول فجأة :

ـ اسمعى ... ما رأيك ؟ أكلم أبى يكلم الشيخ سلطان الآن .

وقالت وهيبة فى فرح خجلان :

ـ الآن ؟

ـ نعم وهل نجد مناسبة مثل هذه ؟

ـ أتستطيع أن تكلم أباك ؟

ـ البركة فى أمى .

ـ الآن .

ـ نعم الآن .

ـ نعم الآن ... وهل هناك أحسن من الآن ... ؟

ـ ٢٠ ـ

كانت حياة عباس فى بيته سعيدة ... استطاع فيها أن يجد نفسه ... استطاع أن يجد كل شىء يعد لراحته ولراحته وحده ... وكان سعيدا فى عمله أيضا فقد عين فى وظيفة هندسية .

ومرت بعباس شهور هانئة ولكن خالته أبت عليه هذه الهناءة فهى تهمس فى جلسة جمعتهما وحدهما :

ـ عباس ... ألم تذهب بليلى إلى الدكتور ؟

وجزع عباس قائلا :

ـ الدكتور ... لماذا كفى الله الشر ؟

ـ يابنى لقد مرت شهور ولم تحمل .

وتنفس عباس من أعماقه :

ـ يا خالتى ظننت الأمر هاماً .

ودقت الست حميدة صدرها وقالت :

ـ هاماً ! وهل هناك أهم من هذا يابنى ؟

ـ يا خالتى ما زالت الأيام أمامنا طويلة .

ـ لا ... لا يا عباس ... إن الزوجة إن لم تحمل فى الشهور الأولى فلابد أن هناك عيبا.

ـ يا خالتى لا تفكرى فى هذا الأمر .

ونظرت إليه ملياً ثم قالت :

ـ عباس ... هل العيب منك ؟

وضحك عباس وقال :

ـ يا خالتى نحن لم نبحث الموضوع بالمرة ... وأنا أعتقد أننا يجب أن ننتظر قليلا ... ما العجلة ؟

ـ اسمع يا عباس هذا كلام لا يعجبنى .. لم أر فى حياتى رجلا لا يريد الأطفال إلا أنت .

ـ يا خالتى أنبحث عن المسئولية ونحن مازلنا فى أول العمر ؟ .. لا نريد أطفالا يا خالتى .

ـ يابنى قل كلاما غير هذا .. لا حرمكم الله منهم .

ـ يا خالتى حالتنا المالية لاتتحمل .

ـ الذى يأتى بهم يتولى رزقهم .

ـ يا خالتى يجب أن يفكر الناس قبل أن يعتمدوا على

الذى يأتى بهم .

وعادت خالته إلى الهمس مرة أخرى برغم أن الحجرة كانت خالية بهما .

ــ يابنى إذا كانت العيب منك فلا تخجل .. كل شىء له علاج .

وضحك عباس :

ــ يا خالتى أبداً.

ــ يا بنى أنا مثل أمك ... ومعى والحمد لله فلوس تكفى ما تريد وزيادة . ولا تفكر فى الفلوس ...

وظل عباس يضحك ثم قال حسما للنزاع :

ــ يا خالتى أنت تريدين أن أذهب بليلى إلى الدكتور سأذهب .

ــ متى ؟

ــ غدا .

ــ ولم لا يكون اليوم ؟

ــ اليوم .

***

وكانت ليلى فعلا تحتاج إلى علاج ... وعلاج طويل ،

وقد استطاعت أمها أن ترغمها على تنفيذ أوامر الطبيب فى دقة متناهية ، فكانت تأتى إلى بيتها منذ الصباح لا تغادرها إلا عند المساء حين تطمئن أن كل ما يريده الطبيب قد تم .

إزاء هذا الاصرار لم يجد الطفل بدا من أن يبدأ فى التكوين ... فبدأ .

ـ٢١ـ

كانت ليلى فى الشهر الأخير من حملها وكانت مستلقية على كرسى يحنو عليها وقد أرخت رأسها إلى ظهره ، وجلس عباس أمامها ينظر إلى عينيها فينساب الهدوء إلى نفسه أنيسا مطمئنا ... وفاجأته زوجته :

ـ ماذا نسميه يا عباس ؟

وابتسم عباس وقال فى دعة :

ـ هل وصلتك الأنباء أنه ولد ؟

وفى استرخائها الحالم قالت :

ـ قل يارب .

ـ أتظنين أنها تفيد ؟ .. أعتقد أن هذه المسألة تتم دون الالتفات إلى الدعوات .

ـ وماذا يضيرك أن تقول يا رب ؟ !

ـ لا أحب أن أقول شيئا لا يفيد .

ـ ألا تحس بالراحة أن تجد من تلجأ إليه ؟ .. عجيبة .

لا أعرف إلا نفسى ألجأ إليها .

ـ ولكنى أظن أن عم الشيخ سلطان هو الذى أنفق عليك حتى تخرجت وأنفق عليك حتى تزوجت .

ـ هذا واجبه .

ـ وهل يؤدى كل إنسان واجبه ؟

وأحس عباس أن السؤال يخفى وراءه شيئا ... وإن كان واثقا أنها تجهل موضوع إيفون جهلا تاما ، ولكنه قال بلا وعى:

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ حكمة عامة ... لا أقصد شيئا معينا .

ـ آه ...

وصمتت ليلى قليلا ثم قالت :

ـ قل لى يا عباس ألا تحس أن غضب أبيك ومقاطعته لنا تجعلك تحتاج إلى شيء ؟ .. ألا تحس الآن أكثر من أى وقت مضى أنك فى حاجة إلى قوة عليا ؟

ـ أحس أننى فى حاجة إلى نفسى .

ـ كم أنت مغرور !

ـ أنا أبصر ... ولا أصدق إلا ما أبصر .

وسكتت ليلى وسكت ... ثم قالت فجأة :

ـ ماذا نسميه ؟

وابتسم عباس وقال لها :

ـ وإن كانت بنية ...

ـ لا ... أريد ولدا يارب ... والنبى يارب ... ولد .

ـ وحين تكون بنية جميلة مثلك هادئة حلوة تشيع الأمن والطمأنينة فى كل الحياة التى تحيط بها ...

وفجأة كست وجه ليلى مسحة من الجد وزال عنها كل الخمول الذى كانت تحسه :

ـ كيف تنوى أن تنشىء هذا الطفل ؟

ـ على حريته ... سأترك له مطلق الحرية .

ـ أى حرية ... أموت ولا يكون هذا ... لا ... إلا هذا يا عباس ... إلا هذا .

ـ ماذا تريدين ؟

ـ لا بد أن يعرف أسس دينه وقواعده ... هذا واجبنا يا عباس .

ـ حتى أنت التى درست الفلسفة فى الكلية ترين أن هذا مهم ؟

ـ لقد عرفت مما درست ومن عقيدتى أن الأنسان بغير دين ضائع . وبغير عقيدة يؤمن بها إيمانا ثابتا سيكون تائها فى هذا الوجود ... وعرفت أن القلق والضياع وتيه الأفكار التى لا تعتمد على المشاعر الروحية هى شر ما يلاقيه الإنسان فى الوجود ...

ـ أنا لا أحس بذلك .

ـ بل أنت ... أنت بالذات أكبر مثل أمامى لهذا الذى أقوله ... أرجوك يا عباس ... ترك لى تربية ابنى .

ـ أتحسين أنى ضائع ؟

ـ أتظن أننى لم أحس بفترة القلق الطويلة التى عانيتها ؟

ـ أنا الآن مطمئن .

ـ مطمئن لأنى أشعرك بالاطمئنان .. مطمئن لأنى هادئة بجانبك واثقة ... إذا فقدتنى ...

وقفز عباس من كرسيه صارخا :

ـ لا ... لا تقولى هذا .

ـ لماذا لا أقول ... إننى بعد أسابيع قليلة سأكون بين يدى الله ... إذا اختارنى إلى جواره ؟

وصرخ عباس مرة أخرى :

ـ أرجوك ... أرجوك ... أستحلفك بكل عزيز لديك ... بالله ... لا تقولى هذا .

ـ يجب أن تتوقعه ويجب أن نتفق على الطريقة التى سيربى بها ابننا ... إن شر ما نلقية إليه هو الضياع وعدم الثقة والقلق ... إياك ... إياك يا عباس ... اذا لم أعش ... أنا... قال عباس :

ـ أرجوك ...

واستأنفت ليلى حديثها كأنها لم تسمعه :

ـ إذا لم أعش فبحياتى عندك ، بحياتى عليك ... بكل ما تؤمن به ولو أنى أصبحت لا أعرف بماذا تؤمن ... أستحلفك بأى شيء ذى قيمة عندك أن تجعل الولد يتلقى تعاليمه الدينية فى إخلاص وفى إيمان عميق .

ـ ما ترين ... ما ترين فقط ... لا تقولى هذا الذى تقولينه .

ـ لماذا يا عباس ؟ .. من يدرى ما يخفيه لى المستقبل ؟

ـ أنت لا تعرفين ما أنت عندى .

ـ أعرف .

ـ فإذا ... إذا فقدتك .

ـ نلتقى فى السماء .

ـ أى سماء ؟

ـ السماء ... الحياة الثانية .. اللقاء الذى لا انفصال له ... ـ كيف أؤمن به ؟ .. كيف أضمن هذا اللقاء ؟

ـ يجب أن تؤمن بالله لتؤمن بهذا اللقاء .

ـ أرجو أن أؤمن .

ـ حاول .

وهز عباس رأسه وقد وضع يده على عينيه :

ـ لا ... لا ... لا أريد أن أفكر فى هذا .. لا أريد أن أفقدك ... لا ... أنا لن أفقدك أبدا ... أبدا أبدا .

وارتمى على كرسيه باكيا واحتضنته ليلى وضمته إلى قلبها فى حب وإعزاز كأنما تحتضن طفلا ، وراحت تربت على ظهره قائلة فى تأثر وإيمان :

ـ لا تخف ... لا تخف يا عباس ... لن تفقدنى ... لن تفقدنى أبدا ...

***

ملأ الخوف قلب عباس منذ ذلك اليوم ... أصبح يترك عمله ويسارع إلى البيت فيظل مقيما بجانب ليلى لا

يتركها... وأحست ليلى الهلع الذى يحيا فيه فحاذرت أن تحادثه مرة أخرى عن موتها .. وكانت هى نفسها تعجب كيف لا تخشى على نفسها من الموت مثلما يخشاه عليها عباس . ولم تكن تحاول أن تحلل السبب فى اطمئنانها وذعره ، وإنما كانت تكتفى بالتعجب لهذا التناقض فى الشعور . أما عباس فقد كان لا يستطيع أن يتصور الحياة بدونها وكأنما جعله حديثها يفكر فى يوم يفقدها فيه فهو فى بحران من الخوف والقلق ... يصب غضبه حينا على أمها التى سعت إلى هذا الحمل ، وحينا على هذا الجنين الذى يسعى طريقه إلى الحياة ، وحينا يصب كل غضبه على نفسه أن اشترك فى هذه الجريمة التى توشك أن تقع ... أصبح ميلاد ابنه يتمثل فى نظره كارثة وشيكة الوقوع لا يستطيع أن يذكرها إلا ويذكر هذا الحديث الذى ملأه رعبا .

ولم يستطع أن يفرغ لعمله كما تعود أن يفرغ له ، وبدأ رئيسه فى العمل يلاحظ عليه هذا التخلف فهو يناديه ويستقبله فى جمود :

ـ وبعد يا أستاذ عباس ؟

ـ فيم ؟

ـ ألا تدرى ... إن عليك واجبات لابد أن تؤديها ؟ وقال فى نفسه (قيد آخر ... وعبودية أخرى) وصمت وقال الرئيس :

ـ أهى فوضى ؟ .. تخرج كما تشاء وتدخل كما تشاء .ألا تدرى أنها وظيفة أنت مقيد بها وملزم بقوانينها حتى تستحق ما تناله من مرتب آخر الشهر ؟

وقال فى نفسه (مرتب آخر الشهر ... عبودية أخرى ، يبدو أن هذه الحياة لا تتم إلا بالعبودية) .

وصمت وقال الرئيس :

ـ لماذا لا تجيب ؟

وأطرق عباس وهو يقول :

ـ ظروف عائلية .

وبدا على رئيسه شيء من العطف وقال له :

ـ اقعد .

وأحس عباس وهو يجلس مزيجا من العواطف المتضاربة .. كان عطف الناس عليه وتجاوبهم مع مشاعره يجعلانه يحس أن هذا المجتمع لا بأس به ، ومن هذا الأحساس كان يداخله خوف على إيمانه بكره المجتمع ، فهو حيران بين شكرانه لهذه

العواطف وبين إحساسه بأن آراءه ليست جميعها سديدة .

وقال الرئيس :

ـ ما هى ظروفك ؟

وأطرق عباس قليلا فقال الرجل :

ـ أنا هنا لست رئيسا فحسب بل إنى أعتبر نفسى والدا لك أيضا ... وقلبان فى الأزمة أقدر على مواجهتها من قلب واحد... لعل ما تضيق به أستطيع أنا حله ... الناس بالناس يابنى .

وأحس فى رحمة الرجل ما يدعو إلى الحديث فهو يقول فى صوت واهن متعثر :

ـ زوجتى حامل فى شهرها الأخير .

وقال الرئيس فى بساطة وإشراق :

ـ شىء عظيم ... هذا أمر يدعو للفرح .

ولكنه بعد أن صمت هنيهة قال :

ـ أتكون محتاجا لأجر الولادة ؟

وقال عباس :

ـ لا ... لا ... أبدا ... إنما أخشى ... أخشى ..

فقال الرجل فى طيبة :

ـ قل ماذا تخشى يا ابنى .

ـ أخشى أن يصيبها شيء فى الولادة .

ـ وأى شيطان أوحى إليك بهذه الفكرة ؟ .. ألا تعرف أن تسعين فى المائة من الأمهات يلدن بلا أى صعوبة .

ـ ولكن هناك عشرة فى المائة ...

ولم يستطع أن يكمل الجملة فقال الرجل :

ـ ولماذا تحسب أن زوجتك بين العشرة فى المائة وليست من التسعين فى المائة ؟ .. أظن التسعين فى المائة أكثر .

وسكت عباس قليلا وقال :

ـ إنى خائف .

ـ أنت الذى تخلق الخوف فى نفسك ... مم خوفك ؟

ـ لا أدرى .

ـ قل يارب .

وسكت عباس قليلا وظل مطرقا ... لقد كان يتمنى فى لحظته تلك أن يستطيع إرسال هذه المناجاة إلى السماء ولكنه يحس أن السماء مغلقة دونه . وعاد الرئيس يقول :

ـ قل يارب ... وقبيل موعد الولاده خذ إجازة لتستطيع أن تبقى إلى جوار زوجتك .

وقال عباس :

ـ أشكرك .

ـ لا ... هذا واجبى ... واجبى كوالد يا عباس ... مع السلامة يا ابنى .

ـ ٢٢ ـ

لم يكن نائما حين قالت له ليلى :

ـ أظن الوقت قد حان .

فقفز عن السرير وراح يهرول ليوقظ خالته التى ألح عليها أن تلازم ابنتها قبيل الولادة بأيام ، ثم عاد يهرول إلى الغرفة ويسألها :

ـ هيه ... هل حصل شىء ؟

وتضحك ليلى قائلة :

ـ ماذا يمكن أن يحصل فى لحظة غبتها عنى ؟

ـ حسبت ... خشيت ...

وراح يضع على نفسه ملابسه فى ارتباك وليلى تنظر إليه فى ابتسامة هادئة لا تفارقها . وفجأة قالت :

ـ مم تخاف ؟

ـ ألا تعرفين ؟

ـ إننى أنا مطمئنة ... وكان عليك أيضا أن تطمئن .

ـ من أين يأتى الإطمئنان ؟ .. من أين يأتى ؟ .. لو كنت أستطيع أن أطمئن مثلك ...

ـ أنا مطمئنة لأنى سأكون بين يدى الله وإنى لراضية بالمصير الذى يريده لى من موت أو ...

ويقاطعها عباس :

ـ أرجوك ... قومى ... قومى ... أرجوك ... ألم تقولى إن الوقت قد حان ؟

ـ نعم ... حان لنذهب إلى المستشفى ...

أما الولادة فلا أظنها تتم قبل ساعات ...

ـ إذن قومى .

ـ دعنى أولا أتم حديثى ... أنا مطمئنة لأننى سأكون بين يدى الله ... وأنت يجب أن تطمئن لأننى سأكون بين يدى الإنسان العظيم الرائع الذى بلغ الفضاء ومزق السماء ... ماذا ؟ أيعجز هذا الإنسان المارد الجبار أن يستقبل طفلا ... مجرد طفل الحياة فيه معدة فيه جاهزة لا تحتاج إلى أى مجهود ؟ كل ما على الإنسان العبقرى أن يستقبل طفلى هذا بعلمه . ألا يستطيع الإنسان الذى بلغ الفضاء أن يخرج طفلا

من ظلمات الرحم إلى نور الدنيا التى اكتشف خوافيها ؟

ـ أهذا وقته ؟

ـ لو كنت مؤمنا بالإنسان والآلة وبالتقدم الذى شق السماء إلى الفضاء لما خفت الآن ... لماذا أنت خائف ؟

وجلس عباس منهوك القوى .

ـ أتسخرين منى ؟ .. يبدو أن لا حاجة بك إلى المستشفى الآن ؟

ـ أنت لا تجيب .

ـ وكيف أستطيع أن أفكر الآن ؟

ـ أسمعت ما كنت أقوله ؟

ـ نعم .

ـ فاذكره دائما ... واذكره وأنا بين يدى الله فى رأيى ، وبين يدى الآلات والإنسان والعلم الحديث فى رأيك أنت .

ودخلت أمها الحجرة ، وحين رأتها جالسة فى هدوئها وابتسامتها المطمئنة قالت وهى تضحك :

ـ ماذا ... هل أجل بسلامته موعد الوصول ؟

وأحست ليلى الألم يعاودها فمدت يدها إلى أمها التى سارعت إليها وأمسكت بها وهى تقول :

ـ لا ... لقد حان موعده .

وقفز عباس خائفا :

ـ ماذا ... أتلد هنا ؟ .. بلا أطباء ولا مستشفى ولا ...

وقالت الأم الخبيرة :

ـ لا ... لا ... من قال هذا ؟ .. مازال أمامنا الوقت متسعا .

ـ ولكنها تتألم .

ـ وهل تظن أنكم جئتم إلى الدنيا إلا بآلامنا هذه ؟

ـ هل أرسلت إلى أمى ؟

ـ نعم .

ثم التفت إلى ليلى فى اضطراب :

ـ هل أنت متعبة يا ليلى ؟

وكان الألم قد زايل ليلى فافترت شفتاها عن ابتسامة واهنة وقالت :

ـ لا ... هيا بنا .

وقاموا ولكن عباس يسأل :

ـ هل أحضرت سيدة سيارة ؟

وقالت خالته ؟

ـ لقد طلبت منها أن تأتى بها قبل أن تذهب إلى بيتكم .

وفى السيارة قالت ليلى :

ـ عباس لن أراك إلا بعد الولادة ... فإذا ... وأمسك عباس يدها فى تشبث وقال :

ـ أرجوك ... أتوسل إليك ...

وواصلت ليلى حديثها :

ـ الولد ... أريده مسلما ... وليس لى رجاء فى الدنيا إلا أن يكون ابنى مؤمنا ... مؤمنا بقلبه وعقله وشعوره ... رجاء أحاسبك عليه عندما نلتقى عند الله فى السماء..

ودقت أمها صدرها وهى تقول :

ـ ما هذا الكلام الذى تقولينه ؟

وقال عباس :

ـ وهل أسمع غير هذا الكلام ؟

وقالت الست حميدة :

ـ هل جننت ؟

وواصلت ليلى حديثها دون أن تلتفت إلى كلام أمها أو زوجها :

ـ إذا كنت لا تستطيع هذا فأعطه أمى ..

وقال فى تخاذل :

ـ أرجوك ... أنت التى ستربينه ، وسيكون كما تريدينه أن يكون . ولكن لا تذكرى هذا الآن ... أرجوك لا تذكريه .

ـ لا أريد منك غير هذا يا عباس .

وأطرق عباس صامتا ، وقالت الأم بعد أن مصت شفتيها:

ـ له فى ذلك حكم .

وتوقفت السيارة فجأة ونظر عباس يرى ما أوقف ركبهم فوجد الشرطى يعترض سبيلهم ، وأوشك أن يقول للسائق امض ولكنه كان يعلم أنه لن يطيع فيد الشرطى أقدس من أى أوامر ، وأوشك أن ينزل إلى الشرطى يرجوه أن يسمح لهم بالمرور فقد خيل إليه أن امرأته ستلد فى السيارة ، ولكنه تذكر أن الشرطى لن يأبه برجائه فالقانون أهم من زوجته والوليد المنتظر ، وحين وجد أن لا سبيل له إلا أن يسكت تضاءل أمام نفسه عاجزا يرنو إلى زوجته وقد عادها الألم . وأمسك يد ليلى فى تشبث ملهوف يردد النظر بين الشرطى ووجه زوجته الذى غضنه الألم المرير . وأخيرا سمح الشرطى لهم أن يسيروا . بلغت السيارة المستشفى ، وأدخلت ليلى إلى غرفة الولادة وصحبتها أمها . وظل عباس وحده ... أحاطت

به الوحدة ... وحدة كاملة ... فراغ ... فراغ كبير من حوله ... أحس كأنه هباءة في الهواء يبحث عن شيء يتعلق به ولكن يده لا تمسك بغير الفضاء ... يقوم إلى باب الحجرة يحاول أن يدخل ولكن أمر الطبيب الصارم يقذف به مرة أخرى إلى الوحدة والفراغ والفضاء .

وجاءت أمه ومعها وهيبة ولطفي وحاول أن يجد فيهم الشيء الذي يتعلق به . وتركته أمه ووهيبة ودخلتا إلى ليلى وظل هو مع لطفي ، وأحس أنه ما يزال يمسك بالفضاء وخيم عليهما الصمت ، وطال ... وخرجت وهيبة فزعة من الحجرة ولقفها عباس :

ـ ماذا ... ماذا يا وهيبة ؟

ـ لا أدرى ... إنها متعبة ... متعبة ... الطبيب يريد طبيبا آخر ... لطفي ... نريد ... نريد ...

واندفع عباس إلى الحجرة وحاول الطبيب أن يمنعه ولكنه لم يعبأ بأوامره ، ووقف إلى جانب ليلى شاحبة بلا لون ولا نأمة إلا صفرة وابتسامة تسللت إلى شفتيها حين رأته وهمست :

ـ لا تخف ... لا تخف يا عباس ... كفاك خوفا .

ـ أريد أن تعيشي ... أريدك أن تظلي بجانبي ؟

ـ سأكون بجانبك دايما ... هنا أو هناك سأكون بجانبك .

وصرخ عباس :

ـ لا ... لا ...

وقال له الطبيب فى حزم :

ـ حياتها فى خطر ... أى هزة قد تودى بها ... أرجوك.

وأمسك بذراعه يقوده إلى خارج الغرفة فاستسلم له ، ولكن قبل أن يصل إلى الباب وقف مرة أخرى فى إصرار :

ـ أراها ضعيفة ... ولكن الأمل كبير ، أليس كذلك يا دكتور ؟

ـ أملنا فى وجه الله ... لا تضع هذا الأمل ... أرجوك .

ونظر إلى الطبيب نظرة داهشة ، ثم استسلم له وخرج ، ولكنه ظل ملاصقا لباب الغرفة يتحسسه فى خوف والدموع تملأ عينيه . فجأة وجد نفسه يقول بلا وعى :

ـ يا رب ...

وأحس أنه وجد ما يريد أن يتعلق به :

ـ يا رب ... يا رب ...

وظل يقولها ... ولا يقول شيئا غيرها ... يارب ... يارب ... وربتت كتفه يد فاستدار ليجد أباه يسأله :

ـ خير يا عباس ؟

وارتمى عباس بين أحضان أبيه باكيا يقول :

ـ ادع لها الله يا أبى ... إنها بين يدى الله .

واحتوى الشيخ ابنه فى حنان ، وفجأة ارتفع صراخ الطفل الوليد فاندفع عباس إلى الحجرة وسأل الطبيب الذى كان ممسكا بالطفل :

ـ وهى ... وهى ... ؟

وقال الطبيب :

ـ ربنا معها .

وركع عباس إلى جانب سرير زوجته وسمعها تهمس :

ـ أريده مؤمنا يا عباس .

وقال عباس فى ثقة وهدوء :

ـ سيكون .

وأشرق وجه ليلى وهى تسمع هذه النغمة الجديدة من الوثوق فى صوت زوجها وأحست أنها بلغت أقصى آمالها وقالت فى راحة :

ـ الحمد لله .

وظل عباس بجانب زوجته ممسكا بيدها صامتا ، وراح

الطبيب يبذل كل ما يستطيع لإنقاذها .

ولكن الله قد هيأ لها مكانا فى جواره .

وعند الفجر كانت ليلى قد صعدت إلى السماء . ورنا عباس إلى وجهها وقال صامتا فى حب والدموع تنهمر على وجهه :

ـ إذن فهو كما قلت يا ليلى ... لقاء هناك ... فى السماء .

القاهرة فى مايو ١٩٦١

رقم الايدأع ٣١١٧ / ٧٧
الرقم الدولى ٠ ـ ١٤٢ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٧٥ قرشا